الفصل الأول

التوكيد فى مقام الحديث عن العبادات

ويشتمل على سبعة مباحث

المبحث الأول: التوكيد فى مقام الحديث عن التوحيد، أمور العقيدة.

المبحث الثانى: التوكيد فى مقام الحديث عن الصلاة.

المبحث الثالث: التوكيد فى مقام الحديث عن الزكاة.

المبحث الرابع: التوكيد فى مقام الحديث عن الصوم.

المبحث الخامس: التوكيد فى مقام الحديث عن الحج.

المبحث السادس: التوكيد فى مقام الحديث عن الجهاد.

المبحث السابع: التوكيد فى مقام الحديث عن الدعاء و الذكر.

obeikandl.com

الفصل الأول
التوكيد في مقام الحديث عن العبادات

مدخل:

العبادة هي الهدف الأسمى من خلق الجن والإنس –على السواء– قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، ومن هنا كان إرسال الرسل بالشرائع السماوية التي تنظم العلاقة بين الخالق –عزوجل– وبين خلقه، وكذا بين الخلق وبعضهم.

" والمعلم مقرر: يتخذ وسيلة وأخرى كي يصل إلى قلوب التلاميذ في رفق رحيم، وحرص هادف، لأنه من أنفسهم، ومصطفى لهدايتهم، ومُهيأ بالفطرة ليكون إمامهم وقدوتهم، فلا عجب أن يتخذ النبي –ﷺ– طريقة تقريرية يجعلها المنهج الأعم لتوضيح المعالم، وتمكين الرسالة"[2].

والبيان النبوي كله تشريع ونور يهتدي به "فكلامه –ﷺ– يجري مجرى عمله كله دين وتقوى، وكله روحانية وحياة"[3].

"على أن آية الإبداع في تعبير محمد– ﷺ – تروعك حين يتحدث عن الأحكام التشريعية بلغة الأديب، فنحن نقرأ المواد التشريعية في كل قانون أرضي جافة خشنة، تلوح لعقلك جامدة صماء، وكأنما كتب على ذوي التشريع أن يحبسوا أحكامهم في نصوص مظلمة مغلقة تتطلب منافذ الضوء في كل حرف، وإذا كان القرآن الكريم نسيج وحده في إبداعه التشريعي فإن نبي الإسلام قد استلهمه في أكثر ما شرع من أحكام.

إنك تقرأ أحاديث محمد – ﷺ – التشريعية فلا يعييك أن تجد طابعه الأدبي، وأن تتلمس عناصر أسلوبه تنادي على نفسها، وتغريك بتأملها، تاليا ومستعيداً حتى لَينسى القارئ أنه يطالع تشريعاً، وله الحق في ذلك، فهو يقرأ أنموذجاً من الأدب القوي يعرض الفكرة معرضاً أخاذاً، فيبعث فيها من الحياة ما يكاد يخرج بها عن دائرة القانون في أنظار القاصرين"[4].

وأسلوب التوكيد من الأساليب التي أخرجت البيان النبوي على هذا النحو من الروعة، والوضوح، والبيان، يتراءى لنا ذلك حينما نطالع نماذج من بيانه –ﷺ– في جامع الترمذي فيما يلي:

---

(١)سورة الذريات، آية (٥٦).

(٢) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، صـ٦٥.

(٣) وحي القلم، تأليف: مصطفى صادق الرافعي، ٩/٣، مكتبة الإيمان، المنصورة.

(٤) البيان النبوي، صـ ٤٧. د/محمد رجب البيومي، دار الوفاء، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

المبحث الأول

التوكيد في مقام الحديث عن التوحيد وأمور العقيدة

obeikandl.com

المبحث الأول

التوكيد في مقام الحديث عن التوحيد وأمور العقيدة

التوحيد والعقيدة هما الأساس الذى يرتكز عليه إسلام المرء ومن ذلك قوله -ﷺ-:

"بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِله إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وإِقَامِ الصَّلاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ، وحَجِّ البَيْتِ"(١).

فالإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله -تعالى- لخلقه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(٢) وجعله وسيلتهم فى التقرب إليه، فبه ينقاد الخلق لخالقهم يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، وهو مظلة يستظل الناس بظلها، ويحرصون على هذا الظل بإقامتهم لأسسه ودعائمه التى يرتكز عليها،

"إذ يقوم الإسلام كبناء على أساس هو العقيدة التى تمثل الإيمان بدعائمه وتتمثل زوايا هذا البناء فى خمسة أركان هى التى حددها الحديث النبوى "بنى الإسلام على خمس" فلكى يقوم التدين على منهج سليم لابد من الوعى بأسس البناء أولاً، ثم أركانه، ثم الانطلاق مع المكونات الأخرى لهذا البناء، فكل بناء لا يقوم على أساس وأركان يُعد مهدوماً، كما أن كل بناء يقتصر على الأساس والأركان يُعد ناقصاً غير كاف"(٣).

ومن هنا شرع النبى -ﷺ- أول الأمر يبين للناس الأسس التى يقوم عليها أعظم، وأكرم بناء وهو الإسلام، فعدَّد أُسسه على الترتيب الوارد فى الحديث الشريف، وهو ترتيب دقيق بدأه -ﷺ- بمفتاح الإسلام الذى بدونه لا يُعتد بباقى الأسس عند فاعليها (فمحافظة النبى -ﷺ- على ترتيب هذه القواعد لإفادة الأوكد فالأوكد، فقد يستنبط الناظر فى ذلك الترتيب تقديم الأوكد على ما هو دونه) (٤).

---

(١) الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة. ت/ أحمد محمد شاكر، كتاب الإيمان، باب ما جاء فى بنى الإسلام على خمس. رقم الحديث (٢٦٠٩)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. بدون تاريخ أو رقم طبع.

(٢) سورة آل عمران، آية (١٩).

(٣) مجلة منار الإسلام، العدد الثانى عشر، ذو الحجة ١٤٢٠هـ، من موضوع: فريضة الحج من خلال الوحى وفقه التدين. للأستاذ: عبد الوهاب الفغرى.

(٤) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم- للحافظ أبى العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبى، =

ونظراً لعِظم الأساس الأول- شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله- لارتباطه بالإقرار بوحدانية الله -تعالى-، ورسالة نبيه محمد -ﷺ- وهو الوجهة التى تتجه إليها بقية الأركان ضمَّنه النبى - ﷺ- عدة مؤكدات يظهر للسامع من خلالها مدى الاهتمام بالخبر المتضمن لها، وهذه المؤكدات هى:

تصديره جُمل الإيضاح الذى أعقب الإبهام، وما يفيده ذلك من شدة الاهتمام به، وزيادة توكيده، إذ أن أسلوب الإيضاح بعد الإبهام من الأساليب التى تفيد تمكين المعنى فى نفس السامع.

"فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال، والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل، والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم"(١) "إذ أن الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب"(٢).

(والإجمال الوارد فى الحديث الشريف فى قوله: "بنى الإسلام على خمس" ليقف المؤمن عنده طويلا يرقب التفصيل، ويعدده، ويحفظه، إذ عليه يتوقف أمر دينه، وتتحدد ملامح دنياه، وأخراه، فإذا جاءته تفصيلات المجمل، ووضح له ما كان خفياً، عض عليها بالنواجذ، ووضعها فى ذاكرة لا تنسى) (٣).

هذا بالنسبة لجمل التفصيل عامة فما بالنا بما يقرع السمع أولاً، وأول أسباب الراحة والاستقرار النفسى عند السامع، وما يكون عنده بمنزلة أول قطرات الماء البارد الذى يروى ظمأه، ويبرد حرارة جوفه، إن تمكين المعنى، وتوكيده ليصير به مضاعفاً، وأكثر تقرراً من سائر جمل التفصيل المعطوفة عليه.

ونظراً لما للإقرار بوحدانية الله -تعالى- من أهمية عظمى إذ هى الأساس والقطب الذى تدور باقى الأركان حوله تدعمه وتقويه، ولما للإقرار بالوحدانية من ثقل على نفوس غير الموحدين عند دعوتهم إلى التوحيد، ونبذ ما عداه من معتقدات باطلة، نرى النبى -ﷺ- قد

ت/ محى الدين ديب مستو- يوسف على بديوى - أحمد محمد السيد- محمود إبراهيم بزال- ١/١٧٠، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

(١) الإيضاح، ٣/١٩٦ - وينظر: شروح التلخيص ٣/٢١٠، ٢١١.

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ٣/٢١٠.

(٣) ينظر: الإجمال والتفصيل وأسراره البلاغية فى صحيح البخارى، رسالة ماجستير للباحث/ نصر عبد العزيز حسن الكتامى - صـ٧٢، ٧٣ بتصرف- مخطوط فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

ضمّن الشهادة والإقرار بالوحدانية أسلوب القصر، وهو يفيد "تقرير الكلام، وتمكينه فى الذهن لدفع ما فيه من إنكار وشك"(١)، ثم اختار من طرق القصر أقواها تأكيداً، وأنسبها لمقام الحث على التوحيد، وهو طريق النفى والاستثناء، ومحل هذا الطريق "الحكم الذى يحتاج للتأكيد لإنكاره، وكونه مما شأنه أن يجهل"(٢)، وهكذا معظم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى حضت على توحيد الله -تعالى- جاءت مشتملة على أسلوب قوى كهذا الأسلوب الذى تعرّض بقوة لمواجهة المعاندين والشاكين طلباً لهدايتهم.

ولا يخفى ما تفيده " أنْ" المخففة من الثقيلة فى جملة الشهادة لله-سبحانه – بالوحدانية أشهد أن لا إله إلا الله " من مبالغة فى توكيد مضمونها وتقريره فى النفس إذا أنها مثل أصلها أنّ المشددة فى إفادة التوكيد وإن كانت تخالفها بما تتسم به من خفة و إيجاز لا ينفكان عنها وكذا عدم عملها وإن كان هناك من العرب من قال بإعمالها (٣).

ويتابع النبى -ﷺ- تأكيده لما يحتاج إلى تأكيد وتمكين بإيلائه الشطر الثانى من الأساس الأول للإسلام اهتماما وعناية، إذ لا يصح إسلام المرء بدون الإقرار برسالته -ﷺ-، ولا يُقبل عمل ممن لا يصدق بها، ولم يذق حلاوة الإيمان من لم يشفع الإيمان بالله إيمانه برسوله محمد- ﷺ- "ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِىَ بِاللهِ رَبّاً وبِالإِسْلاَمِ دِيناً وبِمُحمدٍ نَبِياً"(٤).

فنراه – ﷺ- مؤكدا الشهادة له بالنبوة والرسالة بـ " أنّ" المشددة ("وأنّ" مفتوحة الهمزة شقيقة "إنّ" المكسورة وهما لتوكيد النسبة ونفى الشك عنها، والإنكار لها وكلا الحرفين بمنزلة تكرار الجملة) (٥).

"ويكونان لمجرد التأكيد إن كان المخاطب عالماً بالنسبة، ولنفى الشك فيها إن كان مترددا فيها، وإن كان منكراً لها فهما لنفى الإنكار، والتوكيد لنفى الشك مستحسن، ولنفى الإنكار لازم، ولغيرهما لا، ولا يستعملان إلا فى تأكيد الإثبات"(٦).

---

(١) الإيضاح، هامش ٣/٥.

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ٢/٢١٤.

(٣) ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش ، ٨/٧١-٧٤ ، طبعة عالم الكتب -بيروت ، ومكتبة المتنبى . بالقاهرة.

(٤) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الإيمان، باب ما جاء فى ترك الصلاة ، رقم الحديث (٢٦٢٣).

(٥) ينظر: شرح المفصل، ٨/٥٩، - ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين ابن هشام الأنصارى، ت/د- مازن المبارك- محمد على حمد الله- سعيد الأفغانى، صـ٥٩، ط١ دار الفكر بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٦) ضياء السالك إلى أوضح المسالك ١/٢٧٣. تأليف/ محمد عبد العزيز النجار - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت.

فمجيء "أنّ" هنا لتأكيد نسبة الرسالة للنبى -ﷺ- أمر لازم نفياً لإنكار المنكرين، ومن هنا لم يأت أمر الإقرار بالرسالة مرسلاً وخالياً من المؤكدات، بل جاء مقرونا بأنّ التى تقف حجر عثرة فى وجه من يفرق بين الإيمان بالله، والإيمان برسوله ﷺ ، فجملة الإقرار بالرسالة النبوية بذلك تبدو وكأنها كررت وأعيدت على الأسماع تمكيناً لها، وتأكيداً على أهميتها.

ومما يعظم أمر دعائم الإسلام الخمس جميعاً ويمكنها فى ذهن السامع، هذا التصوير البيانى الرائع فى قوله -ﷺ- : "بنى الإسلام على خمس" وسبيل هذا التصوير كما ذكر الإمام العينى: "الاستعارة التمثيلية التى تمثل حالة الإسلام مع أركانه الخمسة بحالة خباء أقيمت على خمسة أعمدة، وقطبها الذى تدور عليه الأركان هو شهادة أن لا إله إلا الله، وبقية شُعب الإيمان كالأوتاد للخباء"(١) فبدون القطب الأوسط وهو الشهادة، والأوتاد التى هى بقية أركانه، يتقوض الخباء، ويذهب أدراج الرياح، وبها يظل متماسكاً ثابتاً مكيناً، لا تقوى الرياح والأهواء على اقتلاعه، وإن طال قصدها إياه.

ووجه حصر أركان الإسلام فى الخمسة المذكورة فى الحديث الشريف "أن العبادة إما قولية وهى الشهادة، أو غير قولية، فهى إما تركى وهو الصوم، أو فعلى، وهو إما بدنى وهو الصلاة، أو مالى وهو الزكاة، أو مركب منها وهو الحج"(٢).

فالحصر بهذه الطريقة لم يدع أمراً يتعبد به الإنسان إلا ذكره على ترتيب يشهد بدقة النبى -ﷺ- وبأن منطقه عن وحى من ربه -تعالى- ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٣)،

وقد يقال: إن هذه الخمس هى الإسلام، فكيف يكون الإسلام مبنياً عليها، والمبنى لابد أن يكون غير المبنى عليه؟

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى، للشيخ بدر الدين العينى، ١/١٢٠ ط دار الفكر، بدون تاريخ = ذكر الإمام العينى أنه يجوز جعل هذه الاستعارة مكنية على أساس تشبيه الإسلام بمبنى له دعائم، ويجوز أيضا جعلها تبعية بأن تقدر الاستعارة فى "بنى" والقرينة الإسلام، ثم جعل الأظهر فى هذه الاستعارة كونها مكنية. ويبدو لى أن الأنفع للمقام هو جعل الاستعارة تمثيلية لكون المعنى معها يزداد قوة وتمكيناً فى ذهن السامع نظراً لما تحمله الاستعارة التمثيلية من ظلال كثيفة من المعانى، ولما توحى به من دلالات كثيرة على أهمية الأعمدة أو الأوتاد خاصة منها ما يتوسط الخباء الذى يمثل الإقرار بالشهادة.

(٢) عمدة القارى ١/١٢٠.

(٣) سورة النجم اية (٣،٤).

والجواب هو (أن "على" فى قوله: "بنى الإسلام على خمس" بمعنى "من" وبهذا تحصل المغايرة بين المبنى والمبنى عليه، أو أن الإسلام عبارة عن المجموع والمجموع غير كل واحد من أركانه) [١].

ونظرة فى نظم الحديث الشريف ترينا متانة سبكه، وجودة نظمه، وحسن تنسيقه، واحتواءه على كثير من الفنون البلاغية غير التى أوردتها سابقا، ومن ذلك:

الكناية عن صفة الإحكام والإتقان للصلاة فى قوله -ﷺ- : "وإقام الصلاة"، "فهى كناية عن الإتيان بها بشروطها وأركانها"[٢]، وللكناية فى النص النبوى يد جليلة فى الحث على الاهتمام بأمر الصلاة، وعدم التهاون فى أدائها، وذلك من توفيقه -ﷺ- إلى كل ما هو جيد، (فالمجيد هو من يشحن فى ألفاظه من أسرار اللغة، فلا يكتفى بما تدل عليه الألفاظ والتعبير عن معنى حقيقى واضح الحدود فى أذهان الناس، بل يستغل إلى أبعد الحدود ظلال المعانى وما توحى به العبارات) [٣].

ومن ذلك أيضا: الإيجاز بالحذف فى أكثر من موطن من مواطن الحديث الشريف، ويتمثل ذلك فى (حذف الفاعل فى قوله: "بنى الإسلام على خمس"[٤]) وسبب الحذف هو أن الفاعل لا يجهله أحد، وهو الله – سبحانه وتعالى- وفى ذلك سرعة قصد للمفعول اهتماما به "حيث يبنى الفعل للمجهول لتركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه"[٥]، (وحذف المفعول الثانى فى قوله: "وإيتاء الزكاة")[٦]، وهو أدق أنواع الحذف وألطفها، حتى قال عنه الإمام عبد القاهر: "واللطائف كأنها فيه أكثر، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر"[٧]، ووصفه السكاكى بأنه "أحد أنواع السحر الكلامى"[٨]، وبسبب حذف المفعول هنا أخذ

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، للإمام محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، ت/عصام الصبابيطى، ١١/٧، ط١، دار الحديث: القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٢) عمدة القارى ١٢٠/١.

(٣) ينظر: من أسرار اللغة، د/إبراهيم أنيس، صـ ٣٣٦ بتصرف، مكتبة الخانجى القاهرة.

(٤) ينظر: عمدة القارى ١٢٠/١.

(٥) الإعجاز البيانى للقرآن الكريم، د/ عائشة عبد الرحمن، صـ ٢٤٣، ط٢ دار المعارف، القاهرة.

(٦) ينظر: عمدة القارى ١٢٠/١.

(٧) دلائل الإعجاز صـ ١٥٣. للإمام عبد القاهر الجرجانى ت/ محمود محمد شاكر ط٣، مطبعة المدنى. القاهرة

(٨) مفتاح العلوم صـ ٢٤٨.

الفعل نصيبه من الانتباه، وصار داعيا بنفسه على الحدث، ولذا نرى الإمام عبد القاهر يتحدث عن مثل هذا الحذف بقوله: "ومنه- أى حذف المفعول- أن تذكر الفعل وفى نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه، إما بجرى ذكر، أو دليل حال، إلا أنك تنسيه نفسك، وتخفيه، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه إلى شئ، أو تعرض فيه لمفعول"(١)،

(وحذف المضاف فى قوله: "وصوم رمضان" والتقدير: صوم شهر رمضان) (٢)، وحذف المضاف وإبقاء المضاف إليه كثير الورود فى البيان النبوى، وعنه يقول ابن الأثير: "هو باب عريض طويل شائع فى كلام العرب"(٣)،

فمن خلال هذا الحذف متعدد الأنواع، والمواطن بدا النص النبوى موجزاً ومتسماً بالتركيز على الدعائم الأساسية للإسلام اهتماماً وعناية بها، دون تطرق إلى تفصيلات لا يستدعيها المقام.

ولا يخفى ما للواو التى عطفت دعائم الإسلام الخمس على بعضها البعض من فائدة عظيمة حيث صارت الدعائم بسببها مترابطة متماسكة لا يكتمل البناء إن فرَّط العبد فى إقامة أى منها، ليس هذا فحسب بل يبدو البناء ناقصاً ومشوهاً، اللهم إلا إذا كان السبب فى ترك أحد دعائم الإسلام الأربعة عدا الأولى الأساسية، والتى لا تترك بحال من الأحوال وكذا الثانية هو عدم الاستطاعة إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٤)،

* * *

(١) دلائل الإعجاز صـ١٥٥، ١٥٦.

(٢) ينظر: عمدة القارى ١/١٢٠.

(٣) المثل السائر، لابن الأثير، ٢/٩٣. تـ/ محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية. صيدا. بيروت،

(٤) سورة البقرة بعض آية رقم (٢٨٦).

وفى مقام تأكيد النبى -ﷺ- على الأهمية العظمى لكلمة التوحيد، وضرورة الالتزام بها، نراه -ﷺ- يبث بشرى جليلة الشأن لأهل التوحيد، فعن أبى ذر- ﷺ- أن النبى -ﷺ- قال:

"أَتَانِى جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِى فَأَخْبَرَنِى أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ. قُلْتُ: وإِنْ زَنَى، وإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ"(١).

فالحق أنه لا يعدل توحيد الله -تعالى- طاعة، كما لا يعدل انتفاءه معصية، فالتوحيد إن وُجِد فهو أعظم الطاعات، وإن انتفى، فانتفاؤه ذنب تتضاءل بجانبه جميع الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢).

ومن هنا سلك النبى -ﷺ- كل طريق يمكنه من خلاله جذب الخلق إلى توحيد الله -تعالى- سواء بالترغيب كما هنا، أو بالترهيب كما هو الشأن فى أحاديث كثيرة أخرى.

فالرسول - ﷺ - هنا يزف بشرى تهفو النفوس لسماعها، وتتشوق القلوب لتحقيقها، يتلقاها الطائع فيبتهج، ويسعد، ويجد فى الطاعة، ويسمع بها العاصى فيأنس ولا ينقطع أمله، وربما سلك سبيل الطاعة لتحقيقها ونراه-ﷺ- وقد ألبس بشراه ثوب التقرير والتوكيد اهتماما بها، وذلك تصديرها بـ"أنّ" الداخلة على ضمير الشأن فى قوله: "أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة"، وهو بذلك يستأصل شكا قد يتطرق إلى نفس بعض من يسمع هذا الحديث، وإن كان الأصل فى خبره- ﷺ - أن يُتلقى بيقين كامل فى صدقه.

ولا يخفى ما لأنّ هنا من مزية فى إكسابها ضمير الشأن حسنا ولطفا لا يتحققان له بدونها.

"فمن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللطف مالا تراه إذا هى لم تدخل عليه، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها"(٣).

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الإيمان، باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة، رقم الحديث (٢٦٤٤).

(٢) سورة النساء، بعض آية رقم (٤٨).

(٣) دلائل الإعجاز ، صـ ٣١٧= وهذا القول وإن كان مذكورا فى سياق حديث الإمام عبد القاهر عن "إنّ" بالكسر وموقعها مع ضمير الشأن، إلا أن الإمام أثناء تمثيله لهذا الأمر أورد شواهد بعضها جاء متضمنا لإنّ مكسورة الهمزة، والبعض الآخر جاء متضمنا لأنّ مفتوحة الهمزة، مما يدل على عدم تفريقه بينهما، وأنه إن مثل بأحدهما فإنما يقصدهما معا، بدليل أنه لم يفرد "أنّ" بحديث يخصها دون "إنّ"- [ينظر: إنما ومواقعها فى القرآن الكريم د/ عبد المنعم محمد السيد منصور، صـ٢٣، مخطوط فى كلية اللغة العربية بالزقازيق، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

وتقريرا لأمر البشارة بالجنة نراه- ﷺ- عبر عن دخولها بصيغة الماضى "دخل" تأكيدا وتمكينا لها فى نفس السامع .

ومن الملاحظ أن النبى -ﷺ- قد عطف ما يدل على ما أوحى به جبريل -عليه السلام- إليه من البشارة على إتيانه إليه، الفاء الدالة على السرعة وعدم التراخى فى بث البشرى فى قوله: "أتانى جبريل فبشرنى..." وذلك لعظم أمر هذه البشرى، فالعطف بالفاء -خاصة- يوحى أن أول ما دار من حوار بين النبى وأمين الوحى حين أتاه، هو تلقينه هذه البشرى دون مقدمات إسراعا بذكر ما يسر.

ومما يدل على شدة اهتمام النبى -ﷺ- بالخبر، تكريره ما يدل عليه بقوله "فبشرنى فأخبرنى" وأحد اللفظين كان يغنى عن الآخر لولا حاجة المقام إليهما معا لما يوحيان به من تصوير صادق لحالة النبى ﷺ أثناء بثه البشرى لأصحابه بعدما أُوحى إليه بها، فلفرط سعادته كرر ما يدل على الخبر طلبا لتأكيده وتثبيته فى نفوس السامعين.

ولعل فى الإخبار ما يفيد أن ذلك لم يكن معلوما لدى النبى ﷺ وأنه وقع عنده جديدا فكانت البشرى بطابعها الأول.

ومما يلفت انتباه السامع أن البشارة مترتبة على عدم الإشراك بالله شيئا كما هو وارد فى نص الحديث "من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة" دون تطرق إلى ذكر التصديق برسالة النبى -ﷺ- مع العلم بأنه لا يعتد بإيمان من لم يؤمن به ويصدقه، والقول بكفره قطعا،

ويجاب عن ذلك بأن "قوله: لا يشرك بالله شيئا، معناه بحكم أصل الوضع ألا يتخذ معه شريكا فى الألوهية ولا فى الخلق، لكن هذا القول قد صار بحكم العرف عبارة عن الإيمان الشرعى"(١).

ونظرا لغرابة ما بشر به النبى، نرى أبا ذر- راوى الحديث- يعقب كلامه -ﷺ- بقوله: "وإن زنى وإن سرق" لعلمه أن من الموحدين برا وفاجرا، طائعا وعاصيا، والبشرى تعمهم جميعا، فحُق له أن يعجب، ويستفهم عما فى نفسه بهذا القول، والاستفهام مقدر، وتقديره: أدخل الجنة وإن سرق وإن زنى"(٢)،

---

(١) المفهم لما أشكل من كتاب مسلم ١/٢٩١-٢٩٢

(٢) البخارى بشرح الكرمانى، ٤٩/٧، ط٢، دار إحياء التراث العربى بيروت ١٤٠٠ هـ/١٩٨١م.

ويجيبه النبى -ﷺ- بما يُوقفه على سعة رحمة الله -تعالى- بقوله: "نعم" موجزا فى الجواب كما نرى، إعلاماً بأنه لا معقب لما قضى الله -تعالى، وإن كانت رواية البخارى، ومسلم لهذا الحديث جاءتا هكذا: "قُلتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ"(١) بإعادة لفظ السؤال فى الجواب تأكيداً وتقريراً يتناسب مع حالة السائل حين سأل.

والمقام يؤيد رواية البخارى ومسلم عن رواية الترمذى- التى معنا- وإن كانت رواية الترمذى لا تخلو من إيجاز يزيدها حسنا، ويوحى بقطع الطريق على المعترض من بدايته.

ومما يدور فى النفس السؤال عن السر فى تخصيص السائل للزنا والسرقة دون سائر الذنوب؟

ويبدو أن الحكمة من ذلك هى "الإشارة إلى جنس حق الله -تعالى- وحق العباد، وكأن أبا ذر استحضر قوله -ﷺ-: "لا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ" لأن ظاهره معارض لظاهر هذا الخبر،

لكن الجمع بينهما على قواعد أهل السنَّة أن يُحمل هذا على الإيمان الكامل، ويُحمل حديث الباب على عدم التخليد فى النار"(٢).

* * *

وبعد ما يطمئن المرء إلى رسوخ عقيدة التوحيد فى قلبه، ويُوقن يقينا كاملاً بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ابتعثه لهداية الخلق، عليه أن يوجه اهتمامه إلى جانب من أهم وأخطر جوانب العقيدة، ألا وهو جانب الإيمان بالقدر حتى يكتمل إيمانه، ويصير مؤمناً حقاً، ومن هنا كان سؤال الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- رسولَ الله -ﷺ- قائلاً:

---

(١) ينظر: صحيح البخارى، للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، ت/د. مصطفى ديب البغا، كتاب الجنائز، باب فى الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله. ط٥، دار ابن كثير، بيروت، دمشق-اليمامة بيروت، دمشق، رقم الحديث (١١٨٠)- الجامع الصحيح، المسمى صحيح مسلم، للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار- نشر دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ أو رقم طبع.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام محمد بن حجر العسقلانى، ت/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز- محب الدين الخطيب- محمد فؤاد عبد الباقى - قصى محب الدين الخطيب[، ١٣٣/٣، ط٣ ، المكتبة السلفية، ١٤٠٧هـ.

يا رسولَ اللهِ أرأيتَ ما نَعْملُ فيه أَمرٌ مُبتَدعٌ، أو مُبتَدأٌ، أو فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ:

"فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَابْنَ الخَطَّابِ، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ"[1].

فما سأل ابن الخطاب -ﷺ- إلا ليطمئن قلبه، وتهدأ نفسه عندما تُجاب عما يدور بخلدها، ويشغل خاطرها، وهنا يراعى النبى -ﷺ- حال السائل، وحال من يسأل عن هذا الأمر فيما بعد، فيؤكد جوابه بعدة مؤكدات منها :

"قد" فى صدر جوابه -ﷺ- فى قوله: "فيما قد فرغ منه" فالسائل يستفهم عن عمله هو وغيره من سائر الخلق، هل هو أمر حادث لا علم من الله -تعالى- به، وإنما يعلمه بعد وقوعه، أم أنه مقدر أزلا قد فرغ الله -تعالى- منه؟

وعلى الفور يجيب النبى-ﷺ- بقوله: "فيما قد فرغ منه" مضمنا الجواب حرف تحقيق، وتوكيد، وهو "قد" الداخلة على الفعل الماضى "فرغ"، (وقد إذا دخلت على الفعل الماضى أو المضارع فلابد فيه من معنى التحقيق) [2]، والمقصود بالتحقيق التأكيد كما صرح بذلك الزركشى عند بيانه لمؤكدات الجملة الفعلية بقوله: "أحدها: قد، فإنها حرف تحقيق وهو معنى التوكيد، وإليه أشار الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معناه حصل له الهدى لا محالة"[3].

فكأن النبى -ﷺ- بذلك يقول للسامع: أمر العمل قد فُرغ منه لا محالة، تمكينا للجواب، وتثبيتا له فى ذهنه، خاصة وأن الفعل الماضى الداخلة عليه قد مبنى للمفعول، وذلك لتمام العلم بالفاعل، وما يفيده بناء الفعل للمفعول من إسناد الفعل للفاعل مرتين،

قال ابن يعقوب المغربى: "فإذا تحقق أن فى ذلك التركيب إسنادين فلا شك أن التركيب المشتمل على إسنادين أوكد وأقوى مما ليس فيه إلا إسناد واحد"[4]،

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب القدر، باب ما جاء فى الشقاء والسعادة رقم (٢١٣٥).

(٢) ينظر: شرح الرضى على الكافية، ت/ يوسف حسن عمر، ٤/٤٤٤،/ ٤٤٥، منشورات جامعة قار، تونس.

(٣) البرهان فى علوم القرآن، ٢/٤١٧- والآية من سورة آل عمران رقم (١٠١)- وينظر: تفسير الكشاف، للزمخشرى، ١/٢٠٦، طبعة دار المعرفة بيروت، بدون تاريخ أو رقم طبع.

(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢/١٧.

ومَن يمعن النظر يجد أن ما ذُيِّل به السؤال هو نفسه ما صُدِّر به الجواب، فكأن الجواب قد ذُكر مرتين، إحداهما: من السائل نفسه حيث ذكره آخرا، ومشفوعا بحرف التحقيق "قد" وكأن هذا الأمر هو ما تطمئن إليه نفسه، ولكنه أراد بسؤاله مزيدا من التحقق والتثبت لا أكثر.

والثانية: فى صدر جوابه -ﷺ- وبدون مقدمات تفصل بين السؤال والجواب، لذا جِئ فى الجواب بقد وهى "لا يُؤتى بها فى شئ إلا إذا كان السامع متشوقا إلى سماعه"(١).

(وبذلك يطمئن الإنسان إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطاه لم يكن ليصيبه، ومن ثم تخلو أعماله من الحيرة والتردد، وينتفى من حياته القلق والاضطراب، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه فى غير ما خوف، ولا هيبة ولا تردد ومن هنا فإنه لا يحزن على ماضٍ ولا يغتم لحاضر ولا يؤلمه هم المستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالا، وأطيبهم نفسا، وأصلحهم بالا، وأهدأهم خاطرا) (٢).

ومن مؤكدات جوابه - ﷺ - النداء بـ " ياء النداء" الموضوعة للمنادى البعيد، مع قرب المنادَى وفطنته، فنجد ذلك فى قوله- ﷺ-: "يابن الخطاب"، فلعلنا نسأل أنفسنا ما الداعى لاستخدام حرف النداء الدال على بُعد المنادَى مع قربه ولا حاجة أصلا للنداء وإن كان النبى - ﷺ - لا محالة مناديا على سائله فلِمَ لَمْ يستعمل أداة، تتناسب مع موقعه منه؟ إذ لا يعقل أن يسأل عمر بن الخطاب النبى -ﷺ- وهو بعيد عنه حتى يتطلب الأمر نداءً فى الجواب وغير ذلك.

والجواب: أن لياء النداء هنا حاجة يستدعيها المقام وهى (أنها إذا نودى بها القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معنى به جدا) (٣)

فجوابه -ﷺ- كما ذكرت أكد على أن الأعمال أمرها قد فرغ منه، وهنا قد يتوهم بعض السامعين أن الإنسان مُجبر على عمله الذى يعمله، فيسأل لماذا نُحاسب إذن على أعمال جُبِرنا على القيام بها؟ وذلك كما سأل الصحابة -رضى الله عنهم- من قبل النبى -ﷺ- بقولهم:

"فَفِيمَ العَمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَ أَمرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ"(٤)،

---

(١) البرهان ٢/٤١٧.

(٢) ينظر: عقيدة المؤمن - لأبى بكر جابر الجزائرى صـ ٤٣٦، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٣) ينظر: تفسير الكشاف ١/٤٤ - والبرهان ٢/٤١٥.

(٤) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار. رقم (٢١٤١).

فياء النداء هنا تؤكد على أهمية الخطاب الذى يتلوها، والذى يجيب به النبى - ﷺ - على ما دار وقتها فى ذهن سائله حيث قال: "وكل ميسر" قاطعا الطريق على كل وهم، أو ظن بما يخالف هذه الحقيقة، وهى أن الله -تعالى- قد فرغ من تقدير أعمال العباد، إلا انه -تعالى- ترك لهم حرية الفعل أو الترك اعتمادا على العقل الذى ميزهم به.

كما يؤكد - ﷺ - المراد بـ "أمَّا" فى قوله -ﷺ-: "أمَّا من كان من أهل السعادة... وأمّا من كان من أهل الشقاء.." فكلا الجملتين يُفصِّل بهما النبى -ﷺ- ما أجمله فى قوله: "وكل ميسر"، (والتفصيل من خصائص أمَّا) [1]، وهو بعد يُشعر السامع بمدى الاهتمام والعناية بالخبر الملقى عليه، والرغبة فى أن يرسخ فى ذهنه.

وأمَّا هنا تكسب المعنى توكيدا وتقريرا إذ أن فائدتها فى الكلام كما قررها الزمخشرى (أن تعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذاك، وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلت: أمَّازيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه فى تفسيرها: مهما يكن من شئ فزيد ذاهب. وهذا التفسير مدل بفائدتين: بيان كونها تأكيدا، وأنها فى معنى الشرط) [2]

وكونها شرطية (فبدليل لزوم الفاء فى جوابها لما فيه من معنى الجزاء) [3]، وإفادتها الشرط فيه إيقاظ للسامع، وحث له على التنبه لما يلقى عليه.

هذا و "إنَّ" فى قوله -ﷺ-: "فإنّه يعمل للسعادة.... فإنّه يعمل للشقاء" تزيد مضمون جواب الشرط توثيقا، وتقريرا (نظرا لإفادتها التأكيد لمضمون الجملة حتى وكأن الجملة بسببها قد تكرر ذكرها وطرقت أذن السامع مرتين) [4] حتى لا يتوهم أن السعادة أو الشقاء قد ينال أى منهما بلا عمل يستوجبه.

---

(١) ينظر: مغنى اللبيب صـ ٨١ - والإتقان فى علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطى، ت/محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٦٥/٢، مكتبة دار التراث- القاهرة، بدون تاريخ أو رقم طبع

(٢) ينظر: الكشاف ٥٧/١ -ومغنى اللبيب صـ ٨٢- والبرهان ٤١٦/٢، ٢٤٢/٤- الإتقان ١٦٦/٢.

(٣) ينظر: المقتضب، لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد، ت/محمد عبد الخالق عضيمة، ٢٧/٣، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٤- ومغنى اللبيب صـ ٨٠- والكشاف ٥٧/١- والبرهان ٢٤٢/٤.

(٤) ينظر: شرح المفصل، ٥٩/٨.

ولا يخفى ما أحدثته إنَّ من تحسين لموقع ضمير المخبر عنه، وإبرازه قويا ذا أثر يعلق بسببه فى ذهن السامع وخاطره.

كما أنه لوضع الظاهر موضع المضمر فى قوله-ﷺ-: "للسعادة" و "للشقاء" بدلا من الهاء فى الجملتين، لذة مع القول الأول، وألم مع القول الثانى، فالأول يزيد من يعمل للسعادة سرورا واطمئنانا، والثانى يزيد من يعمل للشقاء حزنا وانكسارا، وذلك لذكر كل من السعادة، والشقاء مكررا بلفظه، ووضعه موضع الضمير (وما يفيده ذلك من زيادة توكيد المعنى وتقريره) [1] (لكون الكلام بذلك خرج عن مقتضى الظاهر الذى ينتظره المخاطب من المتكلم فى صورة مختلفة لا يكون العدول إليها إلا لوجه من تقرير المراد) [2].

وأخيرا يزداد المعنى المراد تأكيدا وتقريرا فى نفس السامع، وذلك بتوشيحه بوشاح المقابلة فى قوله -ﷺ-: "أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء".

"والطباق مفردا ومكررا على سبيل المقابلة يؤكد المعانى، ويقررها عند المخاطب لأن الضد يّظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء، وهو فى الحديث الشريف يستعمل لاستيعاب الحكم للمتقابلات، وذلك ظاهر الشأن فى التقرير.

أو يستعمل لتقابل الحكمين إظهارا، وإيضاحا لكلا المقامين ترغيبا بأحدهما، وترهيبا بالآخر، وشرِّيَة الشر تؤكد خيرية الخير بالمفهوم، فضلا عن اقترانها بها فى الذكر، فليس الطباق لمجرد تحسين الكلام فى حديثه -ﷺ- ولا لهوا من لهو الفارغين، وإنما هو يؤدى أغراضا أصيلة لا تؤدى دونه، فالتحسين به حسن طبيعى غير مقصود لذاته"[3].

وهكذا رأينا أن المؤكدات الواردة فى الحديث الشريف على كثرتها تعمل عملا جماعيا فى زيادة إيضاح المعنى وتوكيده، خاصة وأن الأمر المتحدث عنه أمر كثيرا ما يُشعل فى النفس جذوة الفضول، والرغبة فى الوقوف على الحقيقة التى زلت أقدام بسببها، وشردت عقول فى

---

(١) ينظر: البرهان ٤٨٢/٢.

(٢) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٣٣٧.

(٣) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٢٣٩.

طلبها، فانتهى بها المطاف إلى الإلحاد، والانغماس فى ظلمات الريب، ولهذا أكد النبـــى -ﷺ- قوله هذا ووثقه، وقرر فى حديث آخر أن إيمان العبد لا يكمل حتى يؤمن بالقدر فقال:

"لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ"(١).

* * *

ومن عقيدة الإيمان بالقدر، وأن الله -تعالى- مسبب الأسباب أزلا، إلى عقيـــدة التوكـــل والاعتماد على الله -تعالى- والاستعانة به، نرى ذلك فى قوله- ﷺ-:

"لَوْ أَنَّكُم كُنْتُم تَوَكَّلُون عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُم كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُوا خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا"(٢)

"فالتوكل عبادة قلبية، وهو سكون القلب إلى كفاية الله -تعالى- وتفويض الأمور إلى الله -تعالى- لكفايته، والاعتماد عليه -سبحانه- لعلمه وقدرته، ولما كان لا كافى إلا الله، ولا قادر على كل شئ سواه، ولا عالم بكل شئ غيره، كان التوكل على غير الله -تعالى- باطلا وشركا، وكان المتوكل على غير الله -تعالى- سكونا، ووثوقا، واعتمادا مشركا"(٣)

فالتوكل بذلك من مكملات التوحيد، ومن ثم نراه -ﷺ- يُوليه عناية واهتماما يتمثلان فى عرضه مؤكِّدا بأكثر من مؤكِّد، بأسلوب يبعث الشوق فى نفس الســـامع- إن لـــم يكـــن مـــن المتوكلين- إلى التزام التوكل على الله- تعالى- فى كل شـــئونه، ويزيـــد المتوكـــل علـــى الله يقينا، واطمئنانا.

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب القدر، باب ما جاء فى الإيمان بالقدر خيره وشره. رقم (٢١٤٤).

(٢) السابق، كتاب الزهد، باب فى التوكل على الله . رقم (٢٣٤٤).

والتوكل: اللجوء والاعتماد- وتغدوا خماصا، وتروح بطانا: أى تغدوا بكرة وهى جياع، وتـــروح عشـــاء وهى ممتلئة الأجواف، والبطون. النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير. ت/ أبى عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة- المواد [وكل - خمص- بطن] ط١، دار الكتب العلمية بيروت. ١٤١٨هـــ/١٩٩٧.

(٣) عقيدة المؤمن صـــ١١٨.

ومؤكدات الحث على التوكل على الله -تعالى- فى الحديث الشريف هى:

التوكيد بـ "أنّ" فى قوله -ﷺ-: "لو أنكم" فمن اهتمام النبى وعنايته بشأن التوكل على الله -تعالى- وإسناد الأمر إليه مع السعى طلباً لتحصيله، نراه -ﷺ- يُصدِّر حديثه بأنّ المؤكدة التالية للو الشرطية، فأداة الشرط تعمل على إيقاظ السامع، وجذب انتباهه لما يُلقَى عليه، فإذا به يتلقى خبراً مؤكَّداً بأداة تعمل على تقريره وتثبيته، وهى أنّ المفيدة لتوكيد مضمون الجملة، وبذلك يركز المعنى المراد فى الطبع، ويتجه عقل السامع بعدها إلى البحث عن السر فى توكيد خبره، فيثبت عنده عِظَم شأن التوكل على الله -تعالى- فيلتزمه فى كل شئونه.

ثم إن نعت التوكل المطلوب التزامه بقوله- ﷺ-: "حق توكله" يفيد أن للتوكل النافع صورة خاصة يجب التزامها طلباً للنفع، وفراراً مما يشوب ما عداها من الوقوع فى براثن الشرك دون قصد من العبد.

ومما يُحفز السامع على التزام منهج التوكل فى حياته توكيد نتيجته باللام الداخلة على جواب لو الشرطية، فى قوله-ﷺ- "لرزقتم"، فعن هذه اللام، وإفادتها التوكيد "يقول الزمخشرى: لام جواب لو، ولولا تؤكد ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى"(١)، (وقيل: إن اللام فى جواب لو، ولولا زائدة مؤكدة، ودليل ذلك جواز سقوطها) (٢)، (فهى تُزاد لتأكيد معنى الجملة بتمامها وتقويتها، ومن ثم يكون التوكيد بها محضاً) (٣).

فالنبى -ﷺ- يعرض حديثه فى سياق الحكاية عن أمر مضى طلباً لتوجيه السامع إلى التزام منهج التوكل على الله، فى رفق رحيم، حيث يبصره بأن توفيقه فى أمور مضت كان متوقفاً على وجود سببه المنوط به، وهو صدق التوكل على الله -تعالى- ومن ثم عليه أن يعتمد هذا المنهج فيما يستقبل،

فجملة الشرط جاءت بصيغة الماضى "لو أنكم كنتم توكلون...."، وكذا الجواب جاء ماضياً مقروناً بلام التأكيد التى تكسبه تقريراً وتوكيداً ، وذلك على سبيل طلب الاستفادة من أحداث الماضى التى يستحضرها السامع أمام عينه ليزداد يقينا من صدق ما يسمع.

---

(١) شرح المفصل ٢٢/٩ - الإتقان ٢٢٧/٢.

(٢) ينظر: شرح المفصل ٢٢/٩-٢٤.

(٣) ينظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٢٥٥/٢.

ويصور النبى - ﷺ - نتيجة التوكل بأسلوب يزيدها تقريراً وإيضاحاً، وهو أسلوب التشبيه التمثيلى فى قوله-ﷺ-: "لرزقتم كما ترزق الطير: تغدو خماصا، وتروح بطاناً"، فمن المقرر أن التشبيه التمثيلى يستعمله النبى -ﷺ- "كوسيلة من وسائل الإيضاح التى يتذرع بها المعلم لتقرير درسه بما لا يدع للتلميذ مجالاً للنسيان، ولهذا نراه ظاهرة أسلوبية واسعة الجوانب، بعيدة الغور فى تعميق المعانى، وتأثيرها فى القلوب"(١)،

(فالتمثيل يضاعف من قوة الكلام فى تحريك النفوس، وتوجيه القلوب، وامتلاك الأفئدة، والسيطرة على المشاعر، واستمالة الأسماع، واسترعاء الأبصار، حتى كأن الكلام لا تتم فائدته إلا به، ولا يأخذ سبيله إلى العقول إلا بعون منه) (٢)

ومن هنا نراه -ﷺ- يدعو السامع إلى التأمل والمعاينة لأنموذج تتجلى حقيقة التوكل من خلاله أصدق ما تكون فعلاً، وأنجح فائدة، ألا وهو الطير، فإذا ما تأمل الإنسان حاله، كيف يعيش هذا الكائن الضعيف، ومن الذى يتولى أمر طعامه وشرابه، إن كان الإنسان لَيموت فزعاً من المستقبل وعنده من الطعام والشراب ما يُبلغه عاماً، أو أكثر، فما بال هذا الطير الذى يهيم فى السماء؟!!،

فإذا ما علم أن الطير يعى أن خالقه -تعالى- متكفل برزقه، ولذا فهو يسعى فى طلب هذا الرزق معتمداً عليه واثقاً من تحصيله بسبب توكله المقرون بسعيه واجتهاده فى طلبه، غير جذعة نفسه من مستقبل، ولا خائفة من حصول غيرها على ما قُدِّر لها، تأكد عنده ضرورة الوثوق بالله -تعالى- والاعتماد عليه فى كل فعل يفعله،

فالصورة التمثيلية تُبرهن للسامع على جلال فائدة التوكل، فالمتوكل على الله -تعالى- حق توكله يُفوِّض أمره إليه، تاركاً أمر إنجاحه عليه مع أخذه بالأسباب المهيَّأة لديه، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٣)، فلا يدع الإنسان العمل ويدعى توكله على الله- تعالى-، ومن هنا كان التمثيل بالطير خاصة دون سائر المخلوقات الأخرى، لكون أمر معيشته مرئياً لا يخفى على أحد، حتى لا يدعى مدع أن الطير تُرزق وهى نائمة فى وكناتها، كلا فهى

---

(١) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ١٥٥.

(٢) ينظر: من أمثال القرآن الكريم، للأستاذ- أبو الوفا محمد درويش صـ٤، المكتبة الإسلامية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٣) سورة الطلاق، بعض آية رقم (٣).

تسعى وتجتهد حسب طاقتها، ومن ثم يكافئها الله -تعالى- بأن ترجع آخر يومها بطونها ملأى بعدما كانت خاوية عند الصباح.

ومن مؤكدات المعنى المراد فى الحديث الشريف الإيضاح بعد الإبهام، وكذا المقابلة فى قوله- ﷺ-: "تغدو خماصا، وتروح بطانا" فنرى أن هذا الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال لَيزيد المعنى بيانا وتوكيدا، إذ أن جملة الإجمال تدعو للسؤال عن كيفية رزق الطير، وإذا بالجواب مفصّلاً لتلك الكيفية بطريقة تدعو للإعجاب من حالة الطير، وكيفية طلبها للرزق، حيث يصور النبى -ﷺ- الطير متسماً بالنشاط، والدأب فى العمل، إذ تبدأ عملها مع إشراق شمس يومها، وتفرغ منه عند الغروب، فنهارها كله سعى، واجتهاد فى الطلب، ومن ثم لا يخيب هذا السعى، بل يكلل بالمكافأة المتمثلة فى حصولها على ما سعت من أجله.

ويزيد النبى -ﷺ- الأمر وضوحاً، وتأكيداً من خلال تلك المقابلة اللطيفة فى جملة التفصيل بين حالتى الطير أول اليوم، وآخره، فهى تسرح صباحاً جائعة، وترجع آخر النهار شباعا عظيمة البطن، فما أشد أسر تلك المقابلة لعقل وقلب السامع لصدق تمثيلها، وروعة بيانها.

ومن هنا فعلى الإنسان إذن أن يأخذ الطير مثالاً يحتذيه فى كل عمل يعمله من حيث صدق التوكل على الله -تعالى- مع الاجتهاد فى السعى، وحتماً لن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

* * *

ومن إحسان العمل، وسلامة العقيدة أن يسير المسلم حسب المنهج الذى حدده رسول الله، ومن ذلك قوله -ﷺ-:

"لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِى هَذَا، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى"(١).

فمن كمال عقيدة التوحيد عند المرء أن يُفرد الله -تعالى- بعبادته فلا يُشرك معه غيره فى عمل يقصد به التقرب إليه، ومن هنا كان نهيه -ﷺ- فى هذا الحديث بطريق النفى عن أمور تنبأ

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ما جاء أى المساجد أفضل رقم (٣٢٦) والرحال: جمع رحل وهو مركب للبعير والناقة. لسان العرب مادة: (رحل).

بها، وأطلعه ربه عليها مما نراه، ونشاهده الآن من قصد الناس من كل حدب وصوب. للمساجد ذوات الأضرحة فى شتى بقاع العالم الإسلامى، الذى انتشرت فيه هذه الظاهرة التى تُعكِّر صفو التوحيد، وقد توقع العبد فى براثن الشرك، دون أن يعلم أن ما يفعله شرك!

ولذا نراه- ﷺ- يؤكد على أن القصد بالزيارة للأماكن المقدسة، وما يستلزمه ذلك من شد للرحال، وتهيئة للسفر لا يكون إلا إلى ثلاثة مساجد ذكرها النبى صراحة حتى لا يقع الخلاف حولها، وزيادة فى التأكيد على أن القصد لا ينبغى أن يكون إلا إليها.

ليس هذا فحسب بل إن هذا الحديث أيضاً بمثابة "تأكيد لحرمة المساجد الثلاثة، وتعظيم لشأنها، حتى تظل على المؤمنين عزيزة مرموقة، تهفو إليها القلوب، وتجمل الرحلة. تجديداً للمعانى التى صحبتها، أليست هى الأعلام التى انبجست منها الأنوار تكشف الظلمات، وما تزال تؤدى مالا يؤدى العلماء من جذب القلوب إلى الله؟"(١).

ومن هنا يتبين لنا أهمية التوجيه النبوى فى هذا الحديث الشريف، وما استلزمه ذلك من اقترانه بمؤكدات تعمل على تقريره فى النفوس، وترسيخه فى الأذهان، ومنها:

التوكيد بأسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء، إذ افتتح النبى -ﷺ- حديثه بنفى يقصد به النهى "وهو أبلغ من صريح النهى"(٢)، ثم عقَّب هذا النفى باستثناء يُخصص بعد تعميم، ويُفصِّل بعد إجمال حيث قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد"، ولولا ما لهذا الأمر من أهمية بالغة لَما عرضه النبى -ﷺ- بأسلوب يغلب استعماله مع منكر الحكم، والشاك فيه وهو أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء، فعن ذلك يقول الإمام عبد القاهر: "وأما الخبر بالنفى والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه"(٣).

وإن كان الصحابة -رضى الله عنهم- وهم أول متلق لهذا القول لن يعترضوا، ولن ينكروا على نبيهم ما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه، ولكن لعلمه- ﷺ- بما يكون عليه حال الأمة فيما بعد أكد نهيه المراد ، ووثقه بما لايدع للنفس مجالاً للإنكار، أو الشك،

---

(١) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ١٣٢.

(٢) تحفة الأحوذى، ١٢١/٢.

(٣) دلائل الإعجاز، صـ٣٣٢.

"فهكذا أسلوب القصر فى البيان النبوى يجئ لحسم الأمور الكبرى، والقضايا الرئيسية وتأتى ألفاظ القصر كلمات معدودات لتحسم القضية، وتستقر ألفاظه فى حافظة الناس وعقولهم يستشهدون بها فى حياتهم العامة"(١).

ومما يزيد الأمر تأكيداً واهتماماً، ما يوحى به سياق الحديث من عموم النهى عن السفر إلى أى موضع فى الأرض غير هذه المواضع الثلاثة المذكورة، وذلك نظراً لكون الاستثناء فى الحديث الشريف مفرغا، والمستثنى منه فى الاستثناء المفرغ لابد أن يقدر بأعم العام، هذا: وإن كان "المراد بأعم العام هنا: ما يناسب المستثنى نوعاً ووصفاً كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيدا. كان تقديره: ما رأيت رجلاً، أو واحداً إلا زيداً، لا ما رأيت شيئاً أو حيوانا إلا زيداً، فههنا تقديره: لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة"(٢)، أو أن المراد أنه" لا يجوز السفر إلى موضع للتبرك به، والصلاة فيه إلا إلى ثلاثة مساجد"(٣).

فالنبى -ﷺ- "قصر الواجب من شد الرحال اهتماماً على هذه المساجد الثلاثة دون غيرها من المزارات ودور العبادة، إيحاء بما لها من فضل يتأكد على المؤمنين أن يعرفوه، لما شرفها الله به من إمامة الأنبياء، ونشر دعوتهم"(٤). فلم يشأ -ﷺ- فى تفضيله لهذه المساجد (أن يذكر لفظ التفضيل الدال ظاهراً على ذلك، وإنما عبر عن المعنى تعبيراً مظللاً موحياً، فنفى شد الرحال إلى أماكن أخرى مع كونه حاصلاً، ويدل نفى الحاصل مع العلم بأنه حاصل على عدم الاعتداد بحصوله، وتنزيله منزلة العدم.

ثم عقب هذا النفى بأداة الاستثناء المخرجة ما بعدها من الحكم على عموم الجنس المقدر، فأوجبت له عكسه، وهو ثبوت شد الرحال إليه على الوجه الذى سبق النفى عليه وفاء بحق المقابلة) (٥).

ومن مؤكدات المعنى المراد فى الحديث الشريف التعبير بأسلوب المجاز المرسل فى قوله -ﷺ-: "لا تشد الرحال" فمن خلال هذا القول يتبين لنا مدى تصعيد النبى -ﷺ- للنهى

---

(١) الإيجاز وخصائصه البلاغية فى صحيح البخارى، د/نصر عبد العزيز حسن الكتامى، صـ١١٧، مخطوط فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢) عمدة القارى، ٢٥٣/٧.

(٣) تحفة الأحوذى ١٢٣/٢.

(٤) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ١٣٢.

(٥) ينظر: السابق صـ٢٠٦ بتصرف.

عن قصد غير المساجد الثلاثة المذكورة بالزيارة، أو التبرك، نظرا لكون النهى المراد ينصرف أولاً إلى العزم على الفعل والهمم به، "لأن التعبير بشد الرحال مسبب عن الاهتمام وصدق العزم على الارتحال إلى المكان البعيد تعبيراً بالمسبب عن السبب"[1]، (وأبلغية المجاز المرسل تكمن فى تقريره المراد فى الذهن لإشعار الملزوم باللازم، وسوق القرينة إلى خصوصه، فكأنه قرر مرتين"[2]،

فهكذا أسلوب المجاز المرسل "يساعد على بلاغة التعبير، وجماله، وحسن وقعه فى النفوس، وهو ينقل المعنى إلى مدلول جديد أكثر اتساعا ومبالغة على ما فيه من تصميم وابتكار"[3].

وإذا كان شد الرحال لازماً عن النية المرادة المنهى عنها من قبيل المجاز فهذا فهم واع وجيد.

وقد ذهب بعض شراح الحديث إلى اعتبار الكناية – أى (الكناية عن السفر بشد الرحال لأنه لازمه) [4].

ولقد تأملت كثيراً فى اختيار النبى –ﷺ – لهذا التعبير بالذات (شد الرحال) فوجدت أن، هذا الأمر يتوسط أمرين كلاهما منهى عنه ومراد لمن خوطب بهذا الحديث،

ولنا أن نتصور الأمر هكذا :

١–مرحلة النية والعزم وتطلع القلب للفعل.

٢–مرحلة التجهيز والإعداد (شد الرحال)

٣–مرحلة الفعل المحرَّم وهو الخروج إلى مساجدٍ ما وتقديسها وبذل الجهد بسبب ذلك.

فأرى أن اختيار النبى – ﷺ – التعبير بشد الرحال يغنى عن الأمرين الآخرين إذ هو مُستلزَم العزم وسبب الفعل وهو أبلغ هنا ؛ لأن تصور الرحلة كله يكمن هنا فالتقديس القلبى هنا ، والإعداد البدنى والمالى أيضا هنا وما بعد ذلك من عمل قد نتصوره عند صاحبه رحلة ترفيه لبّى فيها داعى القلب.

---

(١) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ، صـ٢٠٦ .

(٢) ينظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤/٢٧٧.

(٣) أساليب القرآن والصورة البيانية، د/محمد إبراهيم شادى صـ٣٨٦، ط١، دار والى الإسلامية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٤) ينظر: تحفة الأحوذى ٢/١٢١.

وأما عن خاتمة المطاف لمؤكدات هذا الحديث، وهى خاتمة تشوّقت النفوس إلى سماعها، وتلهّفت إلى الوقوف عليها تصحيحاً لمسار عقيدتها، وتحديداً لما تسلكه من طرق الخير، وأعمال البر، فإذا بالنبى -ﷺ- يحدد مزارات ثلاثة أجمعت قلوب المسلمين على محبتها، وتنافس العباد فى زيارتها، وهى المسجد، الحرام، ومسجد النبى -ﷺ- والمسجد الأقصى، على ترتيبها الذى وردت به جملة الإيضاح فى قوله -ﷺ-: "مسجد الحرام، ومسجدى هذا، ومسجد الأقصى"،

فمن خلال هذا الإيضاح، والتفصيل للأماكن التى نهى النبى - ﷺ - عن شد الرحال إلى غيرها تتأكد أهمية هذه الأماكن الثلاثة، ويتضح للمرء كمال العناية بها، والاهتمام بأمرها، وإلا كان يكفى أن يقال: لا تشد الرحال إلا إلى مسجد الحرام، ومسجدى هذا، ومسجد الأقصى، دون إبهام وإيضاح بعد الإبهام كما نرى، فبهذا الأسلوب يتمكن المعنى المراد عند السامع ويثبت لديه لتلقيه له فى صورتين.

وما مُيِّزت هذه المساجد الثلاثة، وأولاها النبى -ﷺ- عنايته واهتمامه، وحث المسلمين على تعظيمهم لها، وقصدهم إياها دون غيرها مما ابتدعه المضلّلون إلا "لكونها مساجد الأنبياء، ولأن الأول قبلة الناس وإليه حجهم، والثانى أُسس على التقوى، والثالث كان قبلة الأمم السالفة"(١)،

وبترتيبهم هذا تتبين مكانة كل مسجد، وتتأكد فضيلته على الذى يليه، وما سواه من المساجد وغيرها من المزارات الدينية.

ثم إنه -ﷺ- نراه وقد خص مسجده بالإشارة المؤكّدة له حيث قال: "ومسجدى هذا" تأكيداً على موطنه، وتقريراً لموضعه الذى تُشد الرحال إليه حتى لا يقع الخلاف بعد ذلك فى تحديده.

• • • • • •

---

(١) تحفة الأحوذى ٢/١٢١،١٢٢.

المبحث الثاني

التوكيد في مقام الحديث عن الصلاة

obeikandl.com

المبحث الثانى

التوكيد فى مقام الحديث عن الصلاة

الصلاة من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله -تعالى- فهى صلة روحية بين العبد وخالقه، وهى مظهر من مظاهر الخضوع لله -تعالى- يتجدد فعله فى اليوم والليلة أكثر من مرة فهى صلة موصولة، وقربة مشهودة، يثاب فاعلها، ويأثم تاركها بل يكفر، لقوله -ﷺ- : "العَهْدُ الذى بيْننا وبيْنَهم الصَّلاةُ فمَنْ تَرَكَها فَقَدْ كَفَرَ"(١)، ومن ثم نراه -ﷺ- يُولِى الصلاة عناية واهتماما، فكثيراً ما يتحدث عنها بأسلوب مؤكَّد يظهر من خلاله مكانة الصلاة بين سائر العبادات، ويتقرر أمرها فى أنفس السامعين،

ومن ذلك قوله -ﷺ-:

أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَىٰ يَارَسُولَ اللهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ" ثَلَاثًا(٢).

يعرض الرسول - ﷺ- على أمته ممثلة فى أصحابه معرفة أمور تمحو الخطايا، وترفع الدرجات، ليستثير كوامن شوقهم، وليبعث عظيم انتباههم، وهم أشد الناس خوفاً من صغير الذنب، فضلاً عن كبيره، وأعظمهم حرصاً على الصعود فى معارج الجنات، والرسول - ﷺ- يستطلع هذا الانتباه فى التفاتهم وجوابهم، فيبين لهم أموراً ثلاثة يُعتقد أنها يسيرة- وهى يسيرة على من يسره الله للفلاح- تكفل تلك الغاية العليا التى يطمح إليها كل مؤمن غيور.

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الإيمان، باب ما جاء فى ترك الصلاة. رقم (٢٦٢١).

(٢) السابق. أبواب الطهارة. باب ما جاء فى إسباغ الوضوء. رقم (٥١،٥٢)

ويمحو: يذهب الأثر، فالمحو لكل شئ يذهب أثره- إسباغ الوضوء: المبالغة فيه وإتمامه. لسان العرب مادتا [محا، سبغ].

والمكاره: هى ما يكرهه الإنسان ويشق عليه - الرباط: فى الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها. النهاية فى غريب الحديث والأثر مادتا [كره، ربط].

وقد يكون من أمر الصحابة أنهم لم يجدوا فيما نبههم إليه جديداً، ولم يذهب بهم عنه بعيداً، فيفتر الأثر فى نفوسهم، ولكن النبى -ﷺ- يرشدهم بما لا غاية فوقه من التقرير والتأكيد إلى فعل هذه الأعمال مع يسرها، ليرسخ فى العقيدة، ويظل حاضراً فى القلب"[1].

فنجده -ﷺ- يُضمِّن حديثه عدة مؤكدات، تنبيها على شرف المتحدَّث عنه، وحثاً على التزامه، وعدم التهاون فى فعله، أو النظر إليه بعين الإقلال، وهذه المؤكدات منها:

التوكيد بـ "ألاَ" فى قوله -ﷺ-: "ألاَ أدلكم"، (فألاَ تدخل على الجملة خبرية كانت أو طلبية، وفائدتها المعنوية هى توكيد مضمون الجملة) [2]، (وإفادتها التوكيد والتحقيق نظراً لتركبها من الهمزة، ولا، وهمزة الاستفهام إذا دخلت على النفى أفادت التحقيق، نحو ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [3].

ولذلك يقول الزمخشرى: "ولكونها فى هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم"[4] وعن معانى "ألاَ" يقول ابن هشام: (ألاَ بفتح الهمزة والتخفيف على خمسة أوجه: أحدها: أن تكون للتنبيه، فتدل على تحقق ما بعدها، وتدخل على الجملتين، والثانى: التوبيخ والإنكار، والثالث: التمنى، والرابع: الاستفهام، والخامس: العرض والتحضيض. ومعناهما طلب الشئ، لكن العرض طلب بلين، والتحضيض معناه طلب الشئ، بحث، وتختص هذه بالجملة الفعلية نحو: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾[5].

وألاَ فى النص النبوى الذى بين أيدينا تفيد العرض استحضاراً لنفس المخاطب وعقله بهذا القول الذى يحمل سؤالاً مشوِّقاً إلى ما يكون من جواب لِما لأداة العرض من استنهاض قوى النفس وإثارة نشاطها،

---

(١) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٩٢،٩٣.

(٢) ينظر: شرح الرضى على الكافية ٤/٤٢١.

(٣) ينظر: مغنى اللبيب صـ٩٦- والآية من سورة القيامة رقم (٤٠)

(٤) الكشاف ١/٣٣- وينظر: البرهان ٤/٢٣٥ - وعروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١/٢٢١.

(٥) ينظر: مغنى اللبيب صـ٩٥-٩٧، والآية الأولى من سورة النور رقم (٢٢)، والثانية من سورة التوبة رقم (١٣).

فالنبى -ﷺ- يعرض على أمته أموراً هيِّنة فى فعلها، عظيمة فى ثوابها، إذ بها تُغفر الذنوب، وتُرفع الدرجات، وهذان الأمران من الأهمية بمكان عند المسلم، ومن ثم نراه صدَّر حديثه عنهما بألَا التى تؤكد المعنى المراد، وتزيده تحقيقاً وتقريراً، وتكسب السامع تشوقاً ورغبة فى الوقوف عليه والتزامه طلباً لمغفرة الذنوب، ورفع الدرجات.

ومن مؤكدات المعنى المراد فى الحديث التعبير بالأسلوب الكنائى فى قوله-ﷺ-: "يمحو الله به الخطايا"، (فمحو الخطايا كناية عن غفرانها، ويحتمل محوها من كتاب الحفظة، ويكون دليلاً على غفرانها) [1]،

والكناية ذات أثر عظيم، ودور بالغ فى إثبات المعنى، وسعته، وتفخيمه، وتوكيده تفيد الألفاظ جمالاً، وتكسب المعنى ديباجة وكمالاً، وتحرك النفوس إلى عملها، وتدعو القلوب إلى فهمها"[2].

فالنبى -ﷺ- أكد أمر مغفرة الذنوب باستخدامه أسلوباً يبالغ فى إثبات المغفرة، بل يكسب السامع شعوراً بأن ذنباً واحداً مما قد اقترفه لن يُسأل عنه إنْ هو فعل ما أُرشد إليه فى هذا الحديث على وجهه اللائق به، يُفهم ذلك من الكناية بالمحو عن المغفرة، وما يفيده لفظ "يمحو" من دلالة على الإزالة التامة للخطايا فلا يبقى لها أثر، ثم إن إسناد هذا المحو التام للخطايا والآثام لله -تعالى- ليَزيد المعنى تحقيقاً وتقريراً، إذ أن الله -تعالى- وحده هو القادر، على التغيير والتبديل حرصا منه -تعالى- على ما ينفع عباده ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[3] ومما يقرر المعنى المراد الإيضاح بعد الإبهام فى قوله- ﷺ-: "إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة"، فنجد أن السامع لهذا الحديث بعد هذا العرض قد تاقت نفسه إلى معرفة ما يستعين به على محو خطاياه، ورفع درجته، فهو فى شوق وحنين إلى هذه المعرفة، بل إنه ليَعانى ألم الانتظار- وإن قل زمنه- لهذه المعرفة، ومن ثم حينما يُعرض عليه إيضاح المبهم أولا بهذه الكيفية يتأكد المعنى لديه، ويرسخ فى ذهنه فلا ينساه أبداً.

ونظراً لما قدم به النبى -ﷺ- لهذه الأمور التى يريد من الأمة التزامها، فقد يتوهم السامع شدتها، أو صعوبة القيام بها، وإذا بجمل الإيضاح توقفه على أمور سهلة ميسورة،

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٢٩.

(٢) الطراز، ليحيى بن حمزة العلوى، ت/ محمد عبد السلام شاهين، ١/٢٠٣، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٣) سورة الرعد آية رقم (٣٩).

وهى على الترتيب الوارد فى الحديث الشريف كما يلى: الأول منها: يتعلق بالتهيئة لأداء الصلاة، وهو الوضوء الذى يسبقها، (والمراد بإسباغ الوضوء على المكاره: أى على برد شديد، أو علل يتأذى معها بمس الماء، أو مع إعواز الماء، والسعى فى تحصيله، وابتياعه بالثمن الغالى ونحوه مما يشق فعله) [1] والثانى: يتعلق بالسعى إلى المساجد طلباً لأداء الصلاة فى جماعة، والثالث: يتعلق بالارتباط الروحى للمسلم بالصلاة فلا يكاد يفرع من صلاة إلا وهو فى شغل بالتى تليها ينتظرها، يترقب وقت أدائها«وكلمة انتظار تدل على يقظة المؤمن وترقبه ما ينتظر، ولا يُترقب ويُنتظر إلا المهم العظيم"[2]،

هذا: وفى قوله -ﷺ-: "فذلكم الرباط" نراه ﷺ وقد قصر معنى الرباط على فعل هذه الأعمال بطريق التعريف للمسند بأل الجنسية وكأنه لارباط إلا ما كان على هذه الكيفية للأعمال المتحدث عنها، ولا اعتبار لما سوى ذلك، وإن علا شأنه وعظمت فائدته.

هذا مع اختلاف بيان معنى الرباط المراد هنا من أنه المرابطة فى ثغر من ثغور المسلمين، شبهت به الأعمال المذكورة تشبيهاً بليغاً من أجل المبالغة فى تحقيق معنى المشبه به للمشبه والتأكيد على ذلك لعظم أجرها ورفعة شأنها. أو أن المراد به أنه المانع من المعاصى والحاجز عنها، أو أنه الرباط المُرغَّب فيه والمُفضَّل كما قيل: الجهاد جهاد النفس، أو أنه الرباط المتيسر والممكن فعله بالنسبة لكل مسلم.

ولقد قيل:(إن هذه الأعمال هى المرابطة الحقيقية لأنها تسد طريق الشيطان على النفس وتقهر الهوى وتمنعها من قبول الوساوس)[3] ومن ثم بالغ النبى -ﷺ- فى تقرير معنى الرباط لها من خلال هذا القصر المفيد اختصاصها به وقصره عليها.

ومما يزيد المعنى فخامة، وتأكيداً أن المسند إليه – المقصور عليه- "ذلكم" "اسم إشارة يدل على التفخيم، وزيادة الميم زيادة فى تنبيه المخاطبين لإفادتها اختصاص الإشارة به إليهم"[4]،

والمسند –المقصور "الرباط" جاء معرفاً بالألف واللام "لقصد المبالغة، وذلك كقولك: زيد هو الجواد، وعمرو هو الشجاع، تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام فى صورة توهم أن

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٢٩.

(٢) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٩٤.

(٣) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٣٠.

(٤) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٩٣.

الجود، أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال"[1]، وذلك هو الحال بالنسبة للأعمال المتحدَّث عنها هنا، والتى قصر النبى -ﷺ- الرباط عليها مبالغة، وتأكيداً على كمالها فى هذا المعنى.

ومما يزيد المعنى المراد توكيداً التكرير فى قوله -ﷺ-: "فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ" ثلاثاً،

فنرى من خلال هذا التكرير اهتماماً بالغاً، وتأكيداً زائداً على أهمية الأعمال التى قصر النبى -ﷺ- الرباط عليها (حتى لا تتوهم المجازفة فى الإخبار بهذا الخبر نظراً لما للجهاد المسلح من فضل ظاهر، قطع تكرار العبادة كل وهم، وأكد ذلك المعنى تأكيداً لا مساغ للشك بعده) [2].

(فالتكرار يأتى فى الكلام تأكيداً له، وتشديداً من أمره، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على العناية بالشىء، والاهتمام به) [3].

(والتكرار ظاهرة من الظواهر الجميلة والأصيلة فى البلاغة العربية، وقد درسه البلاغيون، والنقاد دراسة وافية لما أحسوا فيه من جمال الأسلوب وتأكيد الكلام، وبلاغته، ولهم فيه ذوقهم الرفيع فى تذوقه وشرح أساليبه، والكشف عن أسراره، وبيان آثاره) [4].

"وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك، بل هو من محاسنها، لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب فى خطاباتها إذا أبهمت بشئ إرادة لتحقيقه، وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيداً، وكأنها تُقيم تكراره مقام المقسم عليه...." [5] "فمن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"[6]،

---

(١) دلائل الإعجاز صـ١٧٩.

(٢) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٩٣.

(٣) ينظر: من دقائق البيان النبوى فى صيغة التلبية صـ١٩٠ ، بحث فى مجلة كلية اللغة العربية بإيتاى البارود، د/رفعت إسماعيل السودانى، العدد التاسع عشر ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م دار اللوتس للطباعة.

(٤) ينظر: البديع فى تذوق البديع، د/ عبد الحليم محمد شادى، صـ ١٠٤، ط١ مطبعة الشروق ١٤٢٢هـ.

(٥) البرهان ٩/٣.

(٦) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطى، ت/محمد أحمد جاد المولى- محمد أبو الفضل إبراهيم- على محمد البجاوى، ٣٢٢/١، ط٣ مكتبة دار التراث القاهرة، بدون تاريخ.

وهكذا الشأن بالنسبة للخبر الوارد عنه -ﷺ- (فما كرره إلا اهتماماً وتعظيماً لشأنه) [١]، (إذ لا يقدر على الرباط المسلح من لا يُعد نفسه له بمثل هذه الأمور، فليتعلم المرابطون هذا النوع العظيم من الجهاد ليُحرزوا النصر، ويفوزوا بالنجاح) [٢].

* * *

ومما ينتظم فى سلك الحث على أداء الصلاة فى جماعة، والترغيب فى ذلك، قوله -ﷺ-

"إِنَّ صَلاةَ الرَّجُلِ فِى الجَمَاعَةِ تَزِيْدُ عَلَى صَلاتِهِ وَحْدَهُ بِخَمْسَةٍ وعِشْرِيْنَ جُزْءاً"[٣]

فالنبى -ﷺ- يُبين فى هذا الحديث سبيلاً من سبل الخير، وطريقاً من طرق زيادة الأجر، ألا وهو أداء الصلاة فى جماعة، فصلاة الجماعة من سنن المرسلين، وسبيل لنيل رحمة رب العالمين، وهى مظهر لتوحّد المسلمين، يجتمعون بسببها خمس مرات فى اليوم والليلة، تتلاقى وجوههم، وتتآلف قلوبهم، وتتأكد بها أواصر المحبة فيما بينهم،

ومن أجل ذلك نراه -ﷺ- يؤكد على عظم ثواب الجماعة هنا، حثاً على التزامها، وترغيباً فى المحافظة عليها، فيفرق بينها وبين صلاة الرجل منفرداً بخمسة وعشرين جزءاً، أو بسبع وعشرين درجة كما ورد فى رواية أخرى بهذا الخصوص فعنه -ﷺ- أنه قال:

"صَلاةُ الجَمَاعَةِ تَفضُلُ عَلى صَلاةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ بِسَبْعٍ وعِشْرِيْنَ دَرَجَةً"[٤]،

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ١/١٣٠.

(٢) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٩٤.

(٣) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ما جاء فى فضل الجماعة. رقم (٢١٦). والجزء: النصيب والقطعة من الشئ. النهاية فى غريب الحديث مادة: [جزأ].

(٤) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ما جاء فى فضل الجماعة. رقم (٢١٥)= ويُجمع بين هذه الرواية والرواية السابقة من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه لا منافاة بينهما فذِكر القليل لا ينفى الكثير، ومفهوم العدد باطل عند جمهور الأصوليين. والثانى: أن يكون النبى أخبر أولاً بالقليل ثم أعلمه الله -تعالى- بزيادة الفضل فأخبر بها. والثالث: أن الحال يختلف باختلاف أحوال المُصلِّين، والصلاة، فيكون لبعضهم خمس وعشرون، ولبعضهم سبع وعشرون بحسب كمال الصلاة- ينظر: تحفة الأحوذى ١/٤٦٩- وفتح البارى، ٢/١٥٥.

واهتماماً منه -ﷺ- بصلاة الجماعة، وإبرازاً لأهميتها، نراه وقد أكد حديثه السابق عنها بعدة مؤكدات منها :

التوكيد بـ "إنّ" فى قوله : "إنّ صلاة الرجل" فنظراً لعظم فضل صلاة الجماعة، ورفعة ثوابها، نراه -ﷺ- وقد صدّر حديثه عنها بـ "إنّ" تأكيداً لإثبات ما يريد نسبته من فضل إليها،

فلقد أفاد دخول إنّ تقرير النسبة، وترسيخها فى ذهن السامع، حتى وكأن الكلام الوارد بها قد كُرر وأُعيد تثبيتاً لمعناه، وتفخيماً وتعظيماً له، فبمجرد أن تقرع إنّ سمع السامع تضاعف من انتباهه. ويقظته لتلقى ما يأتى بعدها، فإذا به يُصدِّق بقلبه، ويجتهد فى أن تُنفِذ جوارحه ما وُجهت إليه من خير ونفع،

وإذا كان ﷺ قد خص صلاة الجماعة هنا بالرجال دون النساء حيث قال: "إن صلاة الرجل" فإن هذا ليؤكد ما ذهب إليه الفقهاء (من أن أفضل صلاة الرجال فى الجماعة، وأفضل صلاة النساء فى بيوتهن، وإن كان يجوز حضورهن الجماعة بشروط تنظم هذا الحضور) [1]، فالحديث جاء بالحث على فعل الأفضل للرجال توافقاً مع ما يتناسب مع طبيعة الرجل وعمله حتى لا يتخذ من كثرة الشواغل ذريعة للتكاسل عن أداء الصلاة فى جماعة.

وبين قوله: ﷺ "الجماعة" وقوله: "وحده"، مطابقة تزيد من تعبئة الشعور النفسى عند السامع بفضل صلاة الجماعة والتأكيد على هذا الفضل، فالضد يظهر حسنه وتتأكد فضيلته عند مصاحبة ضده له، واقترانه به فى الذكر، وذلك على حد قول الشاعر:

وَنُذِيمُهم وبِهم عرفْنا فضلَهُ ... وبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ[2]

فالطباق فى الحديث الشريف يفيد توكيد المعنى، وتقريره عند السامع، فضلاً عما يبثه فى نفسه من دعوة إلى التأمل (تتفتح له بسببها آفاق واسعة من الإدراك والوعى، فيثبت له الرشد من الغى، وحينئذ يوضع أمام مسئولية الاختيار) [3].

---

(١) ينظر: الفقة على المذاهب الأربعة ٣٥٩/١ وما بعدها ط٩ وزارة الأوقاف المصرية، ١٤١٨ هـ /١٩٩٧م . فقه السنة ، للشيخ السيد سابق ١٧١/١ طبعة دار الفتح للإعلام العربى القاهرة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٢) البيت لأبى الطيب المتنبى، ينظر: ديوان المتنبى بشرح العكبرى، ت/ مصطفى السقا - عبد الحفيظ شلبى ٢٢/١، ط دار المعرفة بيروت.

(٣) ينظر: لمحات من هدى النبى -ﷺ- وبلاغته، د/ عبد الغنى بركة صـ٢٨، ط مؤسسة دار التعاون.

ويزاد على ذلك ما يوحى به لفظ "الجماعة" من الأنس، والألفة، والتماسك بين المسلمين، وذلك بسبب اجتماعهم لأداء الصلاة.

وما يوحى به لفظ "وحده" من الوحشة، والنفور، والتقوقع أو التشرزم بسبب هجر الجماعة، وصلاة المرء وحده، وهذا ما يأباه الإسلام، ويُحرِّض على عدم فعله، فلولا الجمع بين المتضادين هنا ما شعر السامع بالفرق الكبير بين أداء الصلاة فى جماعة، وأدائها منفرداً.

ومما يقرر فضل الجماعة وزيادة أجرها الباء الزائدة فى قوله -ﷺ- : "بخمسة وعشرين جزءاً" فنجد أن ما تقدم من تقرير لفضل صلاة الجماعة، وزيادتها فى ثوابها على صلاة المسلم وحده يبعث فى نفس السامع الشوق إلى معرفة مقدار هذه الزيادة، والوقوف على حدودها فإذا بالنبى -ﷺ- يُبادره بالجواب الذى يُريح نفسه ببيانه مقدار الزيادة بيانا مؤكّداً بما لا يدع مجالا للشك فى أمرها، وذلك بذكره مفعول الزيادة مقترناً بالباء الزائدة، (لإفادة التوكيد) [1]، (فكل حرف زِيد فى كلام العرب قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى، تأكيداً لمعناها، وتقريراً لها فى نفس السامع، فحروف الزيادة أو الصلة تتغير نفس المطبوع بنقصانها، ويجد نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانها، فأصل المعنى حاصل بدون الحرف الزائد دون التأكيد، وبوجوده حصل فائدة التأكيد) [2] وذلك حضاً على أداء الصلاة فى الجماعة لعظيم أجرها وجزيل ثوابها.

ولقد ذكر الإمام ابن حجر أنه قد وقع الاختلاف بين روايات هذا الحديث فى مميز العدد المذكور، فأكثرها ورد بلفظ "درجة" أو حذف المميز، وبعضها جاء بلفظ "ضعفاً، أو صلاة، أو جزءاً" كما هو الحال هنا فى الرواية – موضوع الدراسة – وقال: (إن ذلك من تصرف الرواة، ويحتمل أن يكون من التفنن فى العبارة) [3]

غير أنه يبدو لى أن التعليق على هذا الاختلاف بين روايات الحديث بأنه من التفنن فى العبارة، غير سديد، ولا يصح استعمال مثل هذا التعبير مع النبى -ﷺ- لما يوحى به من الاشتغال باللفظ، والسعى وراء تحسينه وتلوينه، مع أن الحسن فى كلامه -ﷺ- طبيعة،

والأولى أن يقال: إن اختلاف المميز قد يكون سببه اختلاف المواطن والأحوال التى قيل فيها هذا الحديث، أو كما قيل: إنه من تصرف الرواة.

* * *

---

(١) ينظر: مغنى اللبيب صـ١٤٤.

(٢) ينظر: البرهان ٣/٧١-٧٤ - والإتقان ٣/١٩٦.

(٣) ينظر: فتح البارى، ٢/١٥٥ - وتحفة الأحوذى، ١/٤٦٩ .

وإذا كان أداء الصلاة فى جماعة يزيد على أدائها منفرداً بخمس وعشرين، أو بسبع وعشرين درجة، فإن هناك صلاة من الصلوات الخمس المفروضة ليفوق أجر أدائها فى جماعة كل تصور، ويجاوز ثوابها كل تخيل، ألا وهى صلاة الغداة، أو الصبح إنْ هى أُديت بطريقة مخصوصة يبينها لنا النبى -ﷺ- بقوله:

"مَنْ صَلَّى الغَدَاةَ فِى جماعةٍ ثُمَ قَعَدَ يذكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَ صَلَّى رَكعَتَينِ كانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ.

قال الراوى: قال رسول الله -ﷺ- :

تَامَّةٍ، تَامَّةٍ، تَامَّةٍ"(١).

فما أسعد من يبدأ يومه بتحصيله ثواب حجة، وعمرة من غير أن يفارق محل إقامته فإن النبى -ﷺ- لَيوجه ذوى البصائر والأبصار بهذا الحديث إلى باب واسع من أبواب الخير، يكثر نفعه، وتعظم فائدته، يتمثل هذا الباب فى الحرص على أداء صلاة الصبح فى جماعة، ثم الجلوس عقب الانتهاء منها فترة زمنية قصيرة يشغل المسلم فيها نفسه بذكر الله -تعالى- وتسبيحه حتى تطلع الشمس، ثم صلاة ركعتى الضحى "بعد أن ترتفع الشمس قدر رمح حتى يخرج وقت الكراهة"(٢).

ونظراً لعظم ثواب هذا العمل نرى النبى -ﷺ- قد أكده: بالتشبيه فى قوله- ﷺ-: "كانت له كأجر حجة وعمرة " فالمراد أن مثوبة العمل المذكور تعدل مثوبة أداء حجة وعمرة على السواء، وفى ذلك مبالغة فى إثبات هذه المثوبة ينتج عنها تقريرها فى ذهن السامع نظراً (لإلحاقها بالكامل فى هذا المعنى وهو الحج والعمرة على سبيل التشبيه ترغيباً)(٣)

والتشبيه إنما يؤتى به لأغراض منها: تقرير حالة المشبه وتمكينها فى نفس السامع "فهو يفيد الإيضاح، والتقرير، والإيجاز، والتوكيد، والمبالغة فى الإقناع والإمتاع"(٤).

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى. أبواب الصلاة، باب ذكر ما يستحب من الجلوس فى المسجد بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس رقم (٥٨٦). والغداة: صلاة الصبح. ينظر: لسان العرب مادة : (غدا).

(٢) تحفة الأحوذى ٢/٥٠٦.

(٣) ينظر: السابق نفسه.

(٤) التشبيه وسماته البلاغية، د/صبَّاح عبيد دراز، صـ١١، مطبعة الشروق ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

وهكذا الحال بالنسبة لهذا الحديث فمعناه يدور حول إثبات كثرة ثواب أداء صلاة الصبح بالكيفية المذكورة، فبدلاً من أن يعبر النبى -ﷺ- عن ذلك بقوله: كان له ثواب كثير، أو عظيم، أو غير ذلك مما قد يقصر عقل السامع عن الوصول من خلاله إلى التصور المطلوب لدرجة الثواب، نراه وقد عبر تعبيراً فخماً يأخذ بعقل السامع إلى أفق رحب من المبالغة والتقرير، وذلك من خلال التشبيه بما تقرر عند السامع كما له فى الثواب، وأنه الغاية القصوى فيه، وهو الحج، والعمرة.

(فالتقرير يقتضى أن يكون وجه الشبه فى المشبه به أتم، وأن يكون المشبه به بوجه الشبه أشهر، وأعرف معاً، تمكيناً للمعنى فى نفس السامع بسبب إظهاره فيما هو فيه أظهر وأقوى) [١].

فمن خلال هذا التشبيه يتمكن فى نفس السامع عِظم ثواب العمل المتحدث عنه، وتتأكد كثرته لديه فيشمر عن ساعد الجد، وينزع ثوب الكسل الذى طالما ارتداه، فينصب فى العبادة، ويرغب إلى ربه راجياً تحصيل الثواب الذى وعد به النبى -ﷺ- فى هذا الحديث.

ثم إن تقديم الجار والمجرور فى قوله -ﷺ-: "كانت له" لَيفيد اختصاص مَن يقوم بأداء العمل المذكور بثوابه فلا يشاركه فيه أحد، وفى ذلك مزيد من الترغيب فى هذا الثواب، والتأكيد له.

كما أكد - ﷺ - المبالغة فى تقرير الثواب المراد بالتكرير فى قوله -ﷺ-: "تامة، تامة، تامة" ، (ففى وصف الحج والعمرة بالتمام إشارة إلى المبالغة فى ثوابهما) [٢] زيادة فى الترغيب فى العمل المذكور، (ثم إن تكرار الوصف بالتمام قد أعاده النبى -ﷺ- ثلاثاً لتأكيد المعنى وتقريره، وقد أعاد الراوى القول لئلا يتوهم أن التأكيد بالتمام وتكراره من قوله) [٣]، فيزداد السامع بذلك اطمئنانا إلى تمام حصوله على ثواب حجة وعمرة لكون الذى أخبر بذلك وكرر الوصف بالتمام هو النبى -ﷺ-، "والتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التى تحملها العبارة المكررة، ويمكن لها فى كيان الإنسان، ويقيم منها خاطراً ملحاً يتردد فى صدره، ويهمس فى ضميره، وقد يعلو همسه حتى يكون طرقاً، أو هتافاً، أو دوياً"[٤].

---

(١) ينظر: الإيضاح ٤/٧٠-٧٢- وشروح التلخيص ٣/٣٩٨-٤٠١.

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٢/٥٠٦.

(٣) ينظر: السابق نفسه.

(٤) الإعجاز فى دراسات السابقين، د/ عبد الكريم الخطيب، صـ٤١٤ ط١، دار الفكر.

وفى عطف جمل الحديث على بعضها البعض بثم -خاصة- من بين أحرف العطف دلالة على ضرورة الاطمئنان فى الفعل، والتراخى والتمهل فى الانتقال من عمل إلى آخر، تناسباً مع جلال هذا الوقت، واستغراقاً فى العبادة استشعاراً لمعانى العبودية والخضوع لله -تعالى- أملاً فى رحمته، وطمعاً فى ثوابه.

* * *

وانطلاقاً من مبدأ المحافظة على الصلاة، وترغيباً فى أدائها يحدثنا النبى -ﷺ- بقوله:

"إِنَّ اللهَ أَمدَكُمْ بِصلاةٍ هِىَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، الوِتْرُ، جَعَلَهُ اللهُ لَكُم فِيمَا بَيْنَ صَلاةِ العِشَاءِ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ"(١).

فلقد فرض الله -تعالى- على أمة الإسلام خمس صلوات فى اليوم والليلة هى بمثابة حلقة الوصل بينهم وبينه- تعالى- تقربهم منه كلما هموا أن يبتعدوا استجابة لداعى الشر، ولمزيد من الأجر، والقرب منه -سبحانه- سن النبى -ﷺ- سنناً من جنس الفرائض تهيئة للوصول إلى عفو الله ورحمته، ولتكون جبراً لما عسى أن يكون قد وقع فى الفرائض من نقص، أو خلل،

ومن هذه السنن صلاة الوتر التى هى بمثابة المنحة من الله -تعالى- لأمة الإسلام، لعظيم ثوابها، ورفعة منزلتها، فهى كما يقول الإمام الغزالى: "أفضل سنن الانفراد"(٢) أى التى يؤديها المسلم وحده فى غير جماعة، ونظراً لهذا الفضل، وتلك المنزلة نرى النبى -ﷺ- قد أكد حديثه عنها بعدة مؤكدات منها بـ "إنَّ" فى قوله -ﷺ-: "إن الله أمدكم" فنرى من خلال هذا التعبير عناية، واهتماما منه -ﷺ- بالخبر الذى يلقيه على أمته، ومن ثم ابتدأه بإنَّ تمكيناً وتقريراً له فى نفوس السامعين، فالكلام قد يؤكد ابتداء تنبيها على أهميته، أو دفعاً لشك قد

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى- أبواب الصلاة. باب ما جاء فى فضل الوتر رقم (٤٥٢).
وأمدكم: الإمداد: أن يرسل الرجل للرجل مدداً بعينه، أى زادكم - وحُمر النعم: النعم: الإبل خاصة، والعرب تقول: خير الإبل حمرها - الوتر: صلاة الوتر. هى أن يصلى الرجل مثنى مثنى ثم يصلى فى آخرها ركعة مفردة، أو يضيفها إلى ما قبلها من الركعات. ينظر: لسان العرب، المواد: [مدد، نعم، حمر، وتر].

(٢) إحياء علوم الدين، لأبى حامد الغزالى، ت/ أبو الفضل عبد الرحيم العراقى، ٢٢٧/١، ط١ دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

يتطرق إليه، أو إنكار منكر له، ولولا ما للوتر من أهمية، لِما لها من ثواب غير محدود قد يساور نفس بعض السامعين الشك فيه أو جحده ما أكد النبى -ﷺ- خبرها.

ولفظ المد فيه تحديد لماهية هذه الصلاة بأنها زائدة على الأصول الخمسة المفروضة، وفى التعبير بأمدَّ دون مدَّ إشارة إلى أن الممدود به أمر محبوب يجلب الخير والنفع، "فأكثر ما جاء الإمداد- أى أمد ومصدره- فى المحبوب، والمد فى المكروه"(١)،

ولا يخفى ما لإسناد الفعل "أمد" إلى الله -تعالى- من إشعار بمزيد رحمة الله بعبادة، مع المبالغة فى التأكيد على تحقق ثواب الوتر.

كما أكد ﷺ المعنى المراد بالباء الزائدة فى قوله -ﷺ-: "بصلاة" فنجد فى هذا القول تحديداً لما أمد الله -تعالى- به عباده المسلمين مع التأكيد عليه، فزيادة الباء فى المفعول به "صلاة" تكسبه تمكيناً وتقريراً لما لها من جرس، ووقع يجعل ما دخلت عليه أكثر تعلقاً بالذهن، وحضوراً فى القلب.

ثم إن تنكير لفظ "صلاة" يشعر بعظمة هذه الصلاة،، ورفعة شأنها، واختصاصها بمزيد من الفضل من بين سائر الصلوات الأخرى، فهى صلاة مميزة فى ثوابها، وفى هيأتها فهى وتر، والله -تعالى- وتر يحب الوتر.

وفى قوله -ﷺ -: "هى خير لكم من حمر النعم" توكيد بالكناية (فهذا القول من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، وإنما قال ذلك ترغيباً للعرب فى صلاة الوتر لأن حمر النعم أعز الأموال عندهم، فكانت كناية عن أنها خير من الدنيا كلها لأنها زخيرة الآخرة التى هى خير وأبقى) (٢)،

فما أدل على كمال خيرية الوتر من هذه الكناية البليغة البالغة الغاية القصوى، فى التعبير عن كمال المكنى عنه، فالتصوير الكنائى قد أكسب المعنى تأكيداً وترسيخاً فى ذهن السامع لأن الشئ الذى يفوق فى خيريته خيرية حمر النعم ليدعو من يسمع عنه إلى البحث عن أسرار خيريته، وتعاهده طلباً لهذه الخيرية.

---

(١) ينظر: المفردات فى غريب القرآن، للراغب الأصفهانى، ت/ محمد سيد كيلانى، مادة: (مد) الطبعة الأخيرة، مطبعة الحلبى، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م- ولسان العرب مادة: (مدد).

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٣٠٣/٢.

ولا يخفى ما فى تعقيب المسند إليه "صلاة" بضمير الفصل "هى" من إفادة اختصاص هذه الصلاة بالخيرية المذكورة لا تتعداها إلى غيرها مبالغة فى ثبوتها لها.

(فتعقيب المسند إليه بضمير الفصل من فوائده تخصيص المسند إليه بالمسند، أى قصر المسند على المسند إليه) [1]. وفى قوله-ﷺ- : "الوتر" بعد الكلام السابق له توكيد بطريق الإيضاح بعد الإبهام إذ به يتمكن المعنى المراد فى ذهن السامع فضل تمكن، ويصير معه وكأنه قد عثر على ضالة طال نشدانه إياها، وعند الظفر بها يشتد حرصه عليها فلا يدعها تفوته أبداً، وهذا ما يدعو إليه الحديث الشريف.

ويختم النبى -ﷺ- الحديث بتحديده وقت صلاة الوتر، إتماما للفائدة المرجوة، وتوضيحاً حتى لا يقع الخلاف بعد ذلك فى تحديد وقتها،

ونرى أنه -ﷺ- قد أتى بلفظ الجلالة بعد الضمير الدال عليه فقال: "جعله الله لكم" تمكيناً للمسند إليه فى ذهن السامع، ودلالة على اختصاص الجعل المذكور به وحده -سبحانه- إشعاراً برفعة شأن صلاة الوتر، وإعلاء لمكانتها فى نفس كل سامع.

وفى التعبير بالجار والمجرور "لكم" مع تقدم ما يدل عليه فى قوله: "أمدكم"، و "خير لكم" تأكيد على أن صلاة الوتر مما اختص الله -تعالى- به هذه الأمة تكريماً وتشريفاً لها، وطلباً لزيادة أجرها وثوابها.

وفى اختيار الوقت المذكور فى قوله ﷺ: "فيما بين صلاة العشاء إلى أن يطلع الفجر" ليكون آخر عمل المسلم فى كل ليلة صلاة ترمز إلى وحدانية الله -تعالى-، وتزكى فى نفسه انفراده – تعالى- بالألوهية والربوبية.

* * *

(١) ينظر: الإيضاح ٢/٤٩، ٥٠- وشروح التلخيص ١/٣٨٦-٣٨٨.

المبحث الثالث

التوكيد في مقام الحديث عن الزكاة

obeikandl.com

المبحث الثالث

التوكيد في مقام الحديث عن الزكاة

الزكاة هى الركن الثالث من أركان الإسلام، ووسيلة من وسائل القرب من الله -تعالى- ونيل رضاه، وهى مظهر من مظاهر التواصل والتعاون بين أفراد المجتمع الإسلامى، تبعث الود بينهم، وتنزع الحقد والحسد من نفوسهم، فالغنى يصل الفقير مما أعطاه الله -تعالى- فيُرضى ربه، ويخطب ود الفقير بقليل لا ينقص ماله، بل يكسبه البركة والنماء ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[1] . والزكاة طهرة لصاحبها من دنس البخل والطمع فما سميت بهذا الاسم إلا لما فيها من تزكية وتطهير للنفس، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2] . ويقال : تزكى بمعنى: تصدق[3].

ولما فى الزكاة، أو التصدق عامة من إعطاء وبذل لما يفنى الإنسان عمره فى طلبه وهو المال . نرى النبى -ﷺ- يرغب النفوس فى التصدق، ويدعوها إليه بأسلوب يجعلها تتسابق فيه، وتحرص عليه.

فعنه -ﷺ- أنه قال:

"مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً تَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ كَمَا يُرْبِي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، أَوْ فَصِيلَهُ"[4]

فالنبى -ﷺ- يدعو المسلمين فى هذا الحديث إلى التصدق من طيب كسبهم، ويحثهم على ذلك ويجذبهم إليه بترغيبهم فى عاقبة الصدقة دون تفرقة بين كون هذه الصدقة معينة

---

(١) سورة سبأ، آية رقم (٣٩).

(٢) سورة التوبة، آية رقم (١٠٣).

(٣) ينظر: لسان العرب مادة : (زكا).

(٤) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الزكاة، باب ما جاء فى فضل الصدقة، رقم (٦٦١).

والفلو: المهر الصغير، وقيل: هو الفطيم من أولاد ذوات الحافر.والفصيل: هو ما فصل عن اللبن من أولاد الإبل، فأكثر ما يطلق فى الإبل، وقد يقال فى البقر. النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادتا [فلا، وفصل].

وهى المفروضة، أو غير معينة وهى التطوع، فالحث والترغيب هنا يشمل الأمرين معاً، وأسلوب الحديث الشريف كما نرى يكسب المعنى وضوحاً وجلاءً فضلاً عن تأكيده وتقريره تقريراً لا تطلب النفس بعده مزيداً، وبيان ذلك:

أن النبى -ﷺ- قد بادر السامع هنا بأسلوب قصر بطريق النفى والاستثناء فى قوله: "ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمنه" وذلك تقريراً لحقيقة يريد لها أن تثبت، وترسخ فى نفوس السامعين، هذه الحقيقة هى حسن القبول والتلقى من الله -تعالى- لصدقة العبد، ووقوعها منه -سبحانه- موقع الرضا،

وتصعيداً للتأكيد على حسن القبول من الله -تعالى- لصدقة العبد كنى النبى -ﷺ- عن ذلك بقوله: "أخذها الرحمن بيمينه"، (وتخصيص التلقى للصدقة باليمين بطريق الكناية يراد منه تثبيت المعانى المعقولة فى الأذهان، وتحقيقها فى النفوس تحقيق المحسوسات حتى لا يتشكك المرء فى القبول كما لا يتشكك من عاين التلقى للشئ بيمينه) [1].

فالتلقى باليمين يحقق القبول ويؤكده، ويعظم المتلقَّى ويشرفه، إذ الشئ الذى يرتضى، ويعز يتلقى باليمين ويؤخذ بها،

(وفى استعمال اليمين أيضاً مشابهة سبيلها الاستعارة التصريحية، إذ استعير ذكر اليمين للقبول والرضا، وذلك بتشبيه قبول الصدقات بقبول من أهدى إليه شئ فأخذه بيده قابلاً له) [2].

فكل ما جاء فى القرآن والحديث من إضافة اليد والأيدى، واليمين وغير ذلك من أسماء الجوارح إلى الله تعالى، إنما هو على سبيل المجاز والاستعارة والله منزه عن التشبيه والتجسيم"[3].

وبعد: فهذا القبول للصدقة، والرضا بها قد مهد له النبى -ﷺ- بما يتلاءم مع التأكيد الذى أحيط به، وذلك بتأكيده للحث على التصدق بزيادة الباء فى لفظ "صدقة" الواقع مفعولاً به فقال: "بصدقة" ليؤدى هذا الحرف الزائد دوراً منوطاً به وهو التقرير لطلب الصدقة، والتأكيد عليه.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٣/٦٨.

(٢) ينظر: سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى، وحاشية الإمام السندى، ٥/٥٧، ط دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة : [يمن] - وينظر: مشكل الحديث وبيانه، للإمام الحافظ أبى بكر بن فورك/ ت/ موسى محمد على، ص٤٥٧، مطبعة حسان، القاهرة، بدون تاريخ، أو رقم طبع.

ونظرا لتنكير لفظ "صدقة" وما يشعر به هذا التنكير من إفادة الشمول والعموم لجنس الصدقة دون نظر إلى مصدرها أمن حلال هى أم من حرام، نراه- ﷺ- قد أتبع هذه النكرة بوصف يخصصها، ويحدد ماهيتها فقال: "من كسب طيب" توضيحا للمقصود، وتحقيقا له.

ولا يقتصر الأمر على وصف النكرة بشبه الجملة، بل يزيده النبى -ﷺ- وضوحا وتأكيدا ببيانه علة الوصف بقوله: "ولا يقبل الله إلا الطيب" معترضا بهذا القول بين الشرط المقدر وجزائه تأكيدا على أهمية طيب الصدقة، وحل مصدرها طلبا لقبولها.

وبعد هذا التوضيح للصدقة من الكسب الطيب، وبيان منزلتها، ودرجة قبولها نرى النبى -ﷺ- يواصل ترغيبه فى التصدق، وحثه على البذل والعطاء ولو بالقليل فربما كان القليل سببا فى خير كثير لا يعلم مداه إلا الله -تعالى- ومن هنا مثّل النبى -ﷺ- للقليل الذى ينمو ويعظم ببركة القبول والرضا بالتمرة فقال: "وإن كانت تمرة تربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل" (وفى ذلك كناية عن تضعيف أجر الصدقة بالتربية) [1]، ولقد ميز النبى -ﷺ- هذه التربية بكونها فى كف الرحمن – عز وجل- وما لذلك من أثر كبير فى التأكيد والتقرير لحقيقة التضعيف لأجر الصدقة.

ولوضع الظاهر موضع الضمير فى قوله -ﷺ-: "فى كف الرحمن" أثر أيضا فى زيادة تأكيد المعنى المراد وتقريره، وذلك بتمكين المسند إليه فى ذهن السامع (نظرا لكون المضمر لا يخلو عن إبهام فى الدلالة بخلاف المظهر فإنه أدل على التمكن لاسيما إذا كان علما لأنه قاطع للاشتراك من أصله والمقام يقتضى هذا التمكين تعظيما للمسند إليه وإفراده بالحكم)[2].

وهنا لا يترك النبى -ﷺ- السامع لعقله وحده فى تصور حدود الثواب على الصدقة التى تماثل التمرة قلة وضألة، فمهما تصور الإنسان ثوابها فلن يوصله إلى مثل ما أوصله النبى -ﷺ- بقوله: "حتى تكون أعظم من الجبل" فبهذا التقدير العظيم للصدقة اليسيرة تزداد النفوس رغبة فى البذل والعطاء.

ولتقريب الصورة وتوضيحها يضرب النبى -ﷺ- لهذا التضعيف مثلا من واقع بيئة المتلقِى الأول لهذا الحديث قائلا: "كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله" وبذلك يتأكد المعنى المراد تأكيدا لا مزيد فوقه لما فى هذا التمثيل من إبراز للأمر المعنوى فى صورة محسوسة يألفها السامع ويعاينها.

---

(١) ينظر، سنن النسائى بشرح السيوطى ، ٥/٥٧.

(٢) ينظر، مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١/٤٥٧.

(وفى اختيار الممثل به دون غيره لكونه يزيد زيادة بيِّنه لا تخفى على أحد) (١).، وفى إضافته إلى ضمير المخاطب بيان وتأكيد على مزيد الاهتمام بأمر الصدقة وإنمائها كما يحرص صاحب الفلو، أو الفصيل على تنميته ورعايته حرصاً لا يتحقق وجوده فى غير صاحب الشى نفسه.

* * *

ومن مظاهر الترغيب فى التصدق، والدعوة إلى إخراج حق الفقير من مال الله الذى أودعه بعض عباده، التقليل فى المقدار الواجب إخراجه أخذا للنفوس برفق عند انتزاع المال منها، وهو من أحب الأشياء إليها إن لم يكن أحبها على الإطلاق عند البعض، وتتضح لنا قلة المقدار الواجب إخراجه من قول النبى ﷺ :

"فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالعُيُونُ العُشْرُ، وَفِيمَا سُقِىَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ العُشْرِ"(٢).

فالدين الإسلامى دين سماحة و يسر لا يعرف إلى العنت أو القهر سبيلا مع أىٍّ من فئات المجتمع، فرحمة الإسلام تشمل الجميع، وهذا الحديث مثال يؤكد شمول رحمة الإسلام، وعدم اختصاصها بفئات معينة فى المجتمع، فكما شملت رحمة الله ــ تعالى ــ الفقير بأن أوجبت له حقا فى مال الغنى، شملت أيضا الغنى بتحديد هذا الحق وتيسيره كى تكون نفسه راضية عند إخراجه، راغبة فى الزيادة عليه، ومع قلة الحق الواجب، أداؤه فى هذا الحديث نرى النبى ﷺ قد أكده بأكثر من مؤكد تقريرا وتثبيتا له حتى لا تتكاسل النفس عن أدائه، أو تتهاون فيه.

فلقد تناول ﷺ هنا نوعا من أنواع المال، وهو الزروع والثمار المكنى عنها بالسقى بالطرق الموضحة فى الحديث، مبينا الحق الذى أوجبه الله ــ تعالى ــ فيها بأنه إما العشر، أو نصف العشر، وأكد على ذلك أولا: بأسلوب القصر بطريق التقديم فقال: : "فيما سقت السماء والعيون العشر، وفيما سقى بالنضح نصف العشر" مقدما الجار والمجرور المتعلق بالخبر المحذوف على المبتدأ فى جملتى الحديث لفتا لأنظار السامعين إلى المعنى المراد إعلامهم به، لينتج عن ذلك تقرره لديهم، ورسوخه فى أذهانهم.

---

(١) ينظر: سنن النسائى بشرح السيوطى، ٥/٥٨.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى ، كتاب الزكاة، باب ما جاء فى الصدقة فيما يسقى بالأنهار وغيرها. رقم (٦٣٩). والعيون: جمع عين وهى التى يخرج منها الماء ــ والعشر: جزء من العشرة ــ لسان العرب مادتا : [عين ــ عشر] ــ والنضح : المراد به الدوالى، والاستقاء، والنواضح : الإبل التى يستقى عليها ينظر:النهاية فى غريب الحديث والأثر مادة [نضح]

"فالأديب عندما يقدم شيئا هو بالقواعد الأسلوبية النمطية مؤخراً يكون ــ بالقطع ــ قد لفت الأنظار لفتاً قوياً لرؤية ترتيب معانيه وتناسقها"[1]. فالتقديم كما ذكر الإمام عبد القاهر: "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة"[2].

والتقديم فى الحديث الشريف ينبئ عن اهتمام كبير، وعناية زائدة بالسبب فى تحديد قيمة الزكاة عُشراً كانت، أو نصف عُشر لِيزداد شعور السامع بالفرق بين الحالتين، وتتأكد عنده سماحة الإسلام ورحمته.

وفى إسناد السقى لكل من [السماء ، والعيون ، والنضح] مجاز عقلى علاقته السببية وفى ذلك مزيد اهتمام بالسبب وتوجيه لأنظار السامعين إليه لكونه الأساس فى تحديد القدر المستحق إخراجه من زكاة الزرع.

كما أن فى التعبير عن أحد شقى السبب فى إحقاق العُشر بالسماء مجاز مرسل علاقته المحلية (حيث ذكر النبى ﷺ المحل وهو السماء، وأراد الحال وهو المطر وما ينتج عنه من سيول وأنهار)[3]. ففى التعبير بلفظ السماء تفخيم ومبالغة ينتج عنهما التأكيد على اليسر وانخفاض مؤنة الزرع الواجب فيه الزكاة، ومن ثَم زادت قيمة المخرج منه قليلا لعدم الحاجة فى سقيه إلى آلة، أوكدّ أو تعب من صاحبه وبذكر المقابل لهذه الحالة يقف الإنسان بنفسه على سماحة الإسلام ويستشعر رحمته وعظمته بتخفيفه قيمة الخارج من الزروع والثمار إلى نصف العشر نظراً لارتفاع مؤنة الزراعة، عند حاجة الزرع فى سقيه إلى آلة، وما يلاقيه الزراع بسبب ذلك من مشقة وتعب، أكد النبى ﷺ حصولهما بزيادة الباء فى قوله "بالنضح" لتشعر الباء الزائدة بتأكيد السبب فى انخفاض القيمة الخراجية إلى نصف العشر قطعا للطريق على اعتراض المعترضين، وريب المرتابين،

وتأكيداً منه ﷺ على تحديد القيمة المخرجة فى هذه الحالة نراه قد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فقال: " نصف العشر" بدلا من (نصفه) اعتماداً على تقدم ما يرجع إليه

---

(١) بلاغة القصر، د/ عبد العزيز أبو سريع يس، ص ١٦٢، مطبعة السعادة ، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٠٦.

(٣) ينظر تحفة الأحوذى ٣/٤٠ .

الضمير، وذلك تقريرا للحقوق، وتأكيداً على حدودها، وتوضيحاً أكثر حتى لا يلتبس الأمر على السامع فيخطأ بالزيادة على القدر المراد إخراجه دون قصد لذلك، أو النقص عنه لجهله بحده،

على ما أحدثه وضع الظاهر موضع الضمير من توافق بين فاصلتى الحديث أكسب ألفاظه تناغما وجرسا معينا جعلها أكثر تعلقاً ورسوخا فى الذهن (فالسجع المطبوع يزيد فى الإفصاح عن المعانى والمشاعر، ويوسع مجال الضوء فى نقل الخواطر فتظهر ساطعة بإيحائها، ووضيئة بألوانها) [1].

ويصف العقاد سجع النبى ﷺ بقوله : "ومذهبه فى هذه الحلية العظيمة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل فحولة فى القول، وفحولة فى الزينة، فسجعه ﷺ كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتحلى بها ولا مزيد"[2].

* * *

ومما ينتظم فى سلك الحث على التصدق والدعوة إليه مع بيان فضل المعطِى ورفعة شأنه بالنسبة للسائل قوله ﷺ :

"لَأَنْ يَغْدُو أَحَدُكُمْ فَيَحْتَطِبُ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَتَصَدَّقَ مِنْهُ فَيَسْتَغْنِيَ بِهِ عَنِ النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ"[3].

(ففى هذا الحديث يريد النبى ﷺ من المؤمن أن يكون عزيز النفس أبيَّ القلب كاسبا، ولا يريده فارغا عالة يسأل الناس أعطوه، أو منعوه، ومع هذا نراه كثيراً ما يحث على الصدقة،

---

(١) ينظر: البيان القرآنى، د/ محمد رجب البيومى، ص ١٥٤، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

(٢) عبقرية محمد، للعقاد، ص ٩٩، طبعة الهيئة العامة للكتاب .

(٣) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الزكاة، باب ما جاء فى النهى عن المسألة، رقم (٦٨٠) ويغدو: الغدو هو السير أول النهار نقيض الرواح، النهاية فى غريب الحديث والأثر مادة (غدا).
ويحتطب : أى يجمع الحطب، لسان العرب مادة : (حطب). العُليا، والسُّفلى: العليا: المتعففة، والسفلى: السائلة، وقيل: العليا: المعطية، والسفلى: الآخذة، وقيل: السفلى: المانعة وتعول: أى مَن تمون وتلزمك نفقته مِن عيالك، فإنَّ فضل شئ فليكن للأجانب، النهاية فى غريب الحديث والأثر مادتا (علا ــ عول).

ويحض على العطاء، ويبين مضاعفة الجزاء عند الله للمتصدقين، ويضرب لذلك الأمثال، بل يجعل من العطاء فرضاً مفروضاً[1].)

ونظراً لأهمية المعنى الذى يقصده النبى ﷺ هنا نراه قد عرضه فى أسلوب يكسبه تحقيقاً وتقريراً حتى يلتزم سامعه بما يوجِّه إليه فسيعد بعزة نفسه وإبائها، ويكون أهلاً لثواب الله وفضله.

يتبين لنا ذلك من خلال ابتدائه ﷺ ألفاظ الحديث باللام الداخلة على أنْ المصدرية فى قوله :"لأنْ" إيذانا بقسم مقدر، وتوطئة له تأكيداً لمضمون الخبر، ولفتاً للأنظار إلى أهميته، "فاللام تأتى مع أنْ توطئة للقسم، وإنذاراً به"[2].

وبعد هذا التصدير يستطرد النبى ﷺ فى عرض ما يقصد إليه من خلال هذا الحديث قائلاً: "يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه، فيستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك"، فيجد السامع فى هذا القول إرشاداً إلى سبيل عزة نفسه، ودعوة إلى العمل بمقتضيات هذه العزة، والأخذ بأسبابها، ومنها العمل رجاء الكسب نتيجة للجهد، وتجنباً للدناءة والابتذال بسبب السؤال، مادام قادراً على العمل، وليس هناك ما يعوقه عنه.

وحتى لا يحبس الإنسان نفسه على عمل بعينه، إ ن توفر له قام به، وإن لم يتوفر له لجأ إلى السؤال، نرى النبى ﷺ قد مثّل للعمل المؤدِى إلى الاستغناء، وعدم السؤال بأقل الأعمال مؤنة، وأكثرها تلاؤماً مع غالب الناس، هذا العمل هو الاحتطاب: أى جمع الحطب، وبيعه، والانتفاع بثمنه.

فهذا العمل يمكن لأغلب الناس القيام به لعدم حاجته إلى حرفة، وقلة مؤن القيام به فلا يحتاج أكثر من آلة القطع، والحبل، وقليل من الجهد، يظهر ذلك من قوله -ﷺ- على ظهره فلا حاجة حينئذٍ إلى ظهر بعير أو غيره من الحيوانات المساعدة، وإن كان هذا العمل يوافق بيئات معينة فليبحث الناس عن أعمال توافق متطلبات أحوالهم يمكنهم القيام بها، وسيجدون ـ

---

(١) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٩٥، ١٩٦.

(٢) معانى الحروف، لأبى ا لحسن على بن عيسى الرمانى، ت، د/ عبد الفتاح إسماعيل شلبى، ص٥٤، طبعة دار نهضة مصر ـ الفجالة، القاهرة.

حتما ــ أعمالاً مشابهة لهذا العمل الممثَّل به فى عدم حاجتها إلى حرفة، مع قلة مؤنة القيام بها. فلقد قامت دول على معنى هذا الحديث فانعدمت عندهم البطالة وربحوا، بينما نأى عن معناه كثير من شباب أُمتنا فشاعت بينهم البطالة وانعدام الكسب وعُطِّلت طاقاتهم أو صرفت فى غير مفيد.

ومع قلة الكسب الذى ينتج عن العمل الممثل به هنا نراه ﷺ قد أعقبه بنتيجتين: إحداهما: التصدق منه، والأخرى: الاستغناء به، وفى ذلك تأكيد على أهمية التصدق، وحث زائد عليه، حيث لم يكتف النبى ﷺ بطلبه من عامل لمثل هذا العمل المتواضع، بل قدمه على أمر استغنائه به عن الناس مع أهمية هذا الأمر وضرورته،

ولا يخفى ما فى اختيار الفاء ــ خاصة ــ للعطف بين تلك الجمل السابقة من إشعار بالفورية مع ترتب الأعمال المذكورة على بعضها البعض، فالغدو والتبكير ينتج عنه السعى والعمل لا الكسل، والعمل ينتج عنه سعة اليد ووجود المال، وينتج عن ذلك البذل والعطاء عند سماحة النفس وكرمها، ومن يعطِى ــ حتما ــ سيوجد معه ما يُغنيه عن السؤال، وإلا فلماذا تصدق إذن؟

وفى إسناد كل من التصدق والاستغناء إلى الضميرين فى (منه، به) العائدين على العمل المذكور (الاحتطاب) مجاز عقلى إذ أنه سبب فى الاستغناء والتصدق وفى هذا الإسناد المجازى توكيد وتقرير لأهمية السبب المذكور.

وربما يسأل السامع نفسه عن السر فى هذا التوجيه المؤكَّد طلبه؟، فإذا ما تأمل قليلاً وجد الجواب فى قوله ﷺ : "خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه، أو منعه ذلك" فيتقرر المعنى المراد بدفع الشك عنه، وقطع الاستشراف النفسى من أن يطول، وذلك من خلال أسلوب الفصل لشبه كمال الاتصال.

وزيادة فى التأكيد والتوضيح لمعنى الجواب يتبع النبى ﷺ القول السابق بقوله : "فإن اليد العليا خير من اليد السفلى"، (وفى ذلك تصوير لحال المعطِى والآخذ، فيدٌ ممتدة للسؤال ذليلة ضارعة، منتظرة، نازلة، محتشمة، ويدٌ ذاهبة بالعطاء عزيزة عاذرة مرضية عالية منشرحة.

وليس المقصود حقيقة اليد، إذ لا معنى لمدح يد، وذم أخرى، وإنما الممدوح والمذموم هو صاحب اليد. فالتعبير باليد هنا تعبير مجازى سبيله المجاز المرسل لعلاقة الجزئية. "وهو

أسلوب تصويرى يفيد المعانى تـقريراً ويزيدها تأكيداً فضلاً عن الإيجاز، وإعطاء المضمـون فى ثوب خيالى ضاف[1]). ومما يعزز من تأكيد الصورة المجازية، ويحدد الهدف منها، سـبقها بإنَّ المؤكدة التى ترسخ فى ذهن السامع فضل المعطِى على السائل.

وفى النهاية يوجه النبى ﷺ السامع، ويرشده إلى الطريقة المثلى فى الإنفاق من كسـبه بقوله": "وابدأ بمن تعول" مقرراً بذلك البدء بالأولى.

وبعد فلا يخفى ما للمطابقة فى هذا الحديث بين قوله ﷺ "فيستغنى، ويسأل" و "أعطاه، أو منعه" و "العليا، والسفلى" من أثر جليل فى عمق الفكرة المقصـودة، وترسـيخها فـى ذهـن السامع، باستحضار صورة النقيضيـن أمـام العيـن ثـم الـترجيح بينـهما توصـلاً إلـى الغاية المقصودة.

• • • • • • •

(١) ينظر:الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية ص ١٩٥-١٩٦.

obeikandl.com

المبحث الرابع

التوكيد في مقام الحديث عن الصوم

obeikandl.com

المبحث الرابع

التوكيد في مقام الحديث عن الصوم

الصوم هو الركن الرابع من أركان الإسلام، وهو عبادة تركية إذ بـــه يـترك الإنســان طعامه، وشرابه، وشهوته تقربا إلى الله، وتوسلا إليه لنيل رضاه، "فإن طالب القرب من الله ــ تعالى ــ والراغب فى الحظوة لدى مولاه، والمتوسل إليه بالإيمان، وصالح الأعمال يرشَد إلـى الصيام، فإنه خير وسيلة إلى ذلك." [1]؛ لأنه من أحب الأعمال إلى الله ــ تعالى ــ ومـــن ثـم أخفى ثوابه، وجعل علم مقداره موكولا إليه وحده، ترغيبا وتشويقا للنفس فى تحصيله، وفـى ذلك يقول النبى ﷺ :

"إِنَّ رَبَّكُمْ يقُولُ: كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالصَّوْمُ لِي وأنا أَجْزِى بِهِ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ، وَلَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسكِ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَى أَحدِكُمْ جَاهِلٌ، وَهُوَ صَائِمٌ، فَلْيَقُلْ: إِنِّى صَائِمٌ." [2].

يوضح النبى ﷺ فى هذا الحديث بعض الحقائق المتعلقة بفريضة الصوم مستعينا فى ذلك بالعديد من أساليب التأكيد ترسيخا للمعنى فى ذهن السامع، ودفعا له إلى العمل بمقتضاه، فنراه ﷺ بادئا حديثه بإنّ المؤكدة فى قوله :" إن ربكم يقول" لافتا بذلك انتباه السامع إلى تحقق مـــا يذكر بعدها، ونفى الشك عنه، ليتثبت عنده التأكد من نسبةُ القول إلى الله ــ تعالى ــ فيوجـــه كل حواسه إليه رغبة فى الوقوف على المراد منه، فإذا بالقول يقرر له حقيقة هامة، وهـى أن الله ــ تعالى ــ جعل جزاء الحسنة عَشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، واختص الصوم من بين سائر العبادات بإخفاء ثوابه مع إضافته إليه ــ سبحانه ــ إضافة تعظيم وتشريف، وتأكيد على عظيم فضله، وجزيل ثوابه، يتبين لنا ذلك من إفصاحه ﷺ عن مقول ربنا عز وجل[3] ــ بقوله :

---

(١) عقيدة المؤمن ص ١٣٣.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى ، كتاب الصوم، باب ما جاء فى فضل الصوم، رقم (٧٦٤) وجُنَّـــة: أى وقايـــة؛ لأنه يقى صاحبه ما يؤذيه من الشهوات . والخُلُوف: تغير ريح الفم. النهاية فى غريب الحديـــث والأثـــر مادتا(جنن ــ خلف).

(٣) الحديث القدسى هو ما أضافه الرسول ــ ﷺ ــ إلى الله ــ تعالى ــ غير القرآن الكريم علي اختلاف بيـــن العلماء في لفظه أمِن عند الله ــ تعالى ــ أم من عند رسوله ــ ﷺ-.

ينظر : موسوعة علوم الحديث الشريف د/ الخشوعي الخشوعي محمد صـــ ٣٥٨ طبعةالمجلس الأعلـــى للشئون الإسلامية القاهرة، ١٤٢٦هـــ / ٢٠٠٥م.

"كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، والصوم لى، وأنا أجزى به"، مبينا سعة رحمة الله ــ تعالى ــ من خلال شمول التضعيف للحسنات، وعمومه كل حسنة دون استثناء يفهم ذلك من استعماله لفظ "كل" المفيدة للشمول، (فهى اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكَّر كما هنا، والمعرَّف المجموع نحو ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ وأجزاء المفرد المعرف نحو "كل زيد حسن")[1].

وتأكيدا على التضعيف المذكور زِيدت الباء فى الخبر "بعشر" تحقيقا للمعنى، وتقريرا له، نظرا للأثر الذى يتركه الحرف الزائد فى نفس السامع، ودعوته إلى التفكر فى سبب الزيادة، وما تحمله من معان تؤدى جميعها غرضا واحدا وهو إفادة التوكيد.

وتصعيدا للمعنى المراد يقرر الحديث اختصاص الصوم بالله ــ تعالى ــ من بين سائر الطاعات بأمرين : أحدهما : إسناده إليه ــ تعالى ــ على سبيل الاختصاص وذلك فى قوله: "الصوم لى"، والآخر: انفراده ــ تعالى ــ بعلم مقدار ثوابه، وتضعيف حسناته وذلك فى قوله: "وأنا أجزى به".

"والسبب فى إضافة الصيام إلى الله ــ تعالى ــ أنه لم يُعبد به غيره ــ تعالى ــ وكل إله باطل يتقرب إليه عابدوه بالصلاة والقرابين وغير ذلك، لكن لا يتقربون إليه إلا أمامه وبحضرته، ولا يتقربون إليه بصوم"[2] "كما أن الأعمال جميعا مظنة الرياء ولا تخلو من أن يكون للنفس فيها حظ لأنها أفعال ظاهرة، وأما الصوم فمن قبيل الترك إذ هوكف النفس عن مشتهياتها فهو عبادة سلبية، وسر بين العبد وبين ربه ولا يطلع عليه غيره فكان أبعد عن الرياء"[3].

ومن أجل ذلك أكد الحق ــ سبحانه ــ انفراده بعلم مقدار ثواب الصوم بتكريره ذكر المسند إليه فى صورة ضمير الفصل "أنا" زيادة فى التقرير والإيضاح، وترغيبا أكثر للسامع فى التقرب إليه ــ تعالى ــ بالصوم، والحرص على إحسانه تناسبا للفعل مع الجزاء .

وكأن المخاطب يسمع ويرى الحق سبحانه ــ يعد الصائمين بالثواب دون وسيط ولذلك كان من المناسب في آيات الصيام أن يقول ــ سبحانه ــ : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾[4] ولم يقل : قل إنى قريب ليلغي الوساطة تماما.

---

(١) ينظر: مغنى اللبيب ص ٢٥٥ والآية من سورة مريم رقم (٩٥).

(٢) مجلة التوحيد ، من مقال بعنوان : من فضائل الصوم، د/ جمال المراكبى، ص ٤، العدد التاسع رمضان ١٤٢٥هـ.

(٣) ينظر: تحفة الأحوذى ١٨٧/٣.

(٤) سورة البقرة آية (١٨٦)

ويقرر النبى ﷺ حقيقة الصوم، وما يجنيه المسلم منه بقوله: "الصوم جنة" بطريق التشبيه وهو تشبيه للمحسوس بالمعقول [١]. وتشبيه المحسوس بالمعقول "دليل الثروة الفكرية، والقدرة على اقتناص المعانى من أغوارها السحيقة، وجوب آفاق الآخيلة الرحيبة بجناح قوى الخفق، وهو لا يسلس إلا لإنسان لماح الذكاء، شفاف العقل، عميق الملاحظة، عامر الواعية الباطنية بالمعانى المختلفة، والنظائر والأشباه الكبيرة) [٢].

وتأكيدا على المبالغة فى إثبات الوقاية للصوم، وتقريرها بالنسبة له خلا التشبيه من ذكر الوجه والأداة على طريقة التشبيه البليغ (إيهاما باتحاد الطرفين، وعدم تفاضلهما، وارتفاعا بالمشبه إلى مستوى المشبه به، وهذه هى المبالغة فى قوة التشبيه) [٣]

كما أنه لتعريف المسند إليه الصوم بأل الجنسية فائدة قصره على كونه وقاية وحماية من قصر الموصوف على الصفة مبالغة فى تحقق معنى الصفة للموصوف وتأكدها له.

وفى تحديده ﷺ ما يقى الصوم منه بالنار فى قوله: "جنة من النار" تصوير مجازى سبيله المجاز المرسل لعلاقة المسببية، حيث إن الصوم يقى المسلم حقيقة من اقتراف الذنوب والآثام، وفى ذلك وقاية له من النار، فالتعبير المجازى يزيد من إيضاح المعنى، ويكسبه مبالغة وتمكينا لا يتحققان له لو سُلك غير سبيله.

ونظرا لما يسببه الصوم من تغير رائحة فم الصائم تغيرا مكروها عند الناس، نرى النبى ﷺ يجعل من هذا الأمر المكروه حافزا أكبر على الصوم، وعدم النفرة منه، بتأكيده أن هذه الرائحة أطيب عند الله ــ تعالى ــ من ريح المسك بقوله: "ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك" ولغرابة ما يخبر به النبى ﷺ ــ هنا ــ من إثبات الأفضلية لرائحة فم الصائم ــ مع كراهتها ــ على رائحة أطيب الطيب وأزكاه وهو المسك، نراه وقد قرر هذه الحقيقة وأكدها بأمرين: أحدهما: اللام الداخلة على المبتدأ "خلوف" توكيدا للخبر وتمكينا له فى نفس السامع. والآخر إيثار التعبير بصيغة أفعل التفضيل "أطيب" المفيدة طيب الأمرين معا مع زيادة الصوم وتفوقه على المسك فى ذلك، فالمفضل عليه شئ طيب الرائحة، بل هو أطيب الطيب، وذلك مما يؤكد إثبات الطيب لرائحة فم الصائم، ويقرره،

---

(١) دليل الفالحين، لابن علان الصديقى، ٢٤/٤، طـ١ دار الريان للتراث.

(٢) فن التشبيه، د/ على الجندى، ١١٢/٢، طـ٢ مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧

(٣) ينظر: بحوث فى البيان، د/ محمود السيد شيخون، بحث التشبيه ص٥٠، دار الطباعة المحمدية.

وحتى تطمئن نفس السامع، ويزداد المعنى وضوحا عنده قدم النبى ﷺ قوله : "عند الله" لتأكيد اختصاصه تعالى بذلك وتشريفا لتلك الرائحة ورفعة لصاحبها وبذلك تزداد رغبة المسلم فى أداء هذه العبادة المترتب عليها تلك الرائحة التى تقع من الله ـ تعالى ـ موقع القبول والاستحسان.

هذا ومن صفات عباد الرحمن الذين يرجى للصائم معيتهم أنهم "إِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"(١)، وهنا يدعو النبى ﷺ إلى هذا الخلق ويؤكد عليه بقوله: "وإن جهل على أحدكم جاهل وهو صائم فليقل: إنى صائم" مستعينا فى ترسيخ خلق التسامح عند الصائم بالأمر الإرشادى "فليقل"، وإنّ المفيدة مع جملتها التأكيد على الحالة المتلبِس بها الصائم، وثباتها، وفى ذلك انتصار للجانب الروحى فى الإنسان على الجانب المادى النازع إلى الشر، وهذا من أسمى مقاصد الصوم وغيره من أنواع العبادات الأخرى .

* * *

ومما يزيد النفس انشراحا للصوم وإقبالا عليه ـ خاصةً الفرض منه ـ ما أخبر به النبى ﷺ بقوله:

"إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِى مُنَاد: يا بَاغِىَ الخَيرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِىَ الشَّرِ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وذلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ"(٢).

يقرر النبى ﷺ فى هذا الحديث فضل شهر الصوم واختصاصه دون أشهر العام بأمور تؤكد فضله، وتزيد السامع رغبة فيه، وإقبالا عليه، ومن ذلك التصفيد لدعاة الشر من الشياطين ومردة الجن بالأغلال الحاجزة لهم عن الإغواء والإفساد بين الناس منذ الليلة الأولى من ليالى شهر رمضان.

---

(١) سورة الفرقان آية رقم (٦٣) .

(٢) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الصوم، باب ما جاء فى فضل شهر رمضان، رقم (٦٨٢) وصُفدت الشياطين:أى شُدت وأُوثقت بالأغلال، والصفد والصفاد: القيد ـ ومردة الجن: المارد هو العاتى الشديد ـ وباغ: أى ناشد وطالب ـ أقصر : القصر الحبس ـ عتقاء : العتق هو التحرير ـ ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر المواد: [صفد ـ مرد ـ بغى ـ قصر ـ عتق] .

فالاحتفاء بشهر الصوم، والتكريم له يبدأ مع اللحظات الأولى لميلاده، ومما يؤكد ذلك، التقييد بقوله ﷺ: "أول ليلة" ففى هذا التعبير تأكيد على فورية الفعل المذكور، وعدم التراخى فيه.

وتمكينا لمعنى الفعل عبر عنه النبى ﷺ بقوله: "صفدت" إيحاء بزيادة الإحكام، وشدة التوثيق للشياطين طوال شهر رمضان، وذلك توافقا مع وقع الكلمة، ودلالتها على التغليظ والإحكام.

وتمكينا للمعنى المراد، وتأكيدا له عبر النبى ﷺ بقوله: "الشياطين ومردة الجن" على سبيل ذكر الخاص بعد العام تنبيها على المبالغة فى التصفيد للعتاة منهم خاصة لشدة إغوائهم، وقوة تأثيرهم مما يتطلب مقابلة ذلك زيادة فى الدلالة على منعهم، وإخماد جذوة شرهم، فكأنهم لذلك قد أُغلّوا، وصُفدوا مرتين.

(وقد قيل: إن تصفيد الشياطين وتقييدهم كناية عن ضعفهم فى الإغواء، والإضلال وإشارة إلى كثرة الثواب والعفو، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين، ويُرد هذا القول باحتمال حمل اللفظ على ظاهره، وحقيقته، وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته، ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين) [1].

والأفضل عندى: هو حمل اللفظ على ظاهره، وأن التصفيد حقيقة واقعة لما فى ذلك من زيادة القهر لقوى الشر، والتنكيل بهم تنكيلا يحسونه، ويجدون ألما شديدا فى تلبسهم به، فضلا عن ذلك الألم المعنوى المتمثل فى عجزهم عن ممارسة الإغواء والإفساد شهرا كاملا.

(وإن كان لا يلزم من تصفيد الشياطين جميعهم ألا يقع شر ولا معصية لأن لذلك أسبابا أخرى غير الشياطين كالنفوس الخبيثة ، والعادات القبيحة، والشياطين الإنسية) [2].

ويتابع النبى ﷺ تقريره بعض فضائل شهر الصوم بقوله: "غلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب" مؤكدا هاتين الفضيلتين بأكثر من مؤكد اهتماما بهما، وعناية بشأنهما،

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٣/٩٤.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

فلقد عقب ﷺ كل جملة من الجملتين بتذييل يؤكد معناها، ويضاعف من تقريره وشموله يتبين لنا ذلك من قوله: "فلم يفتح منها باب" وقوله: "فلم يغلق منها باب" إذ أن كلا من القولين يقتضيه المقام ويستدعيه تقويه للمعنى المراد، وحجزاً للنفس عن أن يساورها شك في مضمونه، بإعادته عليها في صورة تذييل مؤكِّد كما نرى، (إذ أن التذييل يُؤتى به لتأكيد الكلام ودفع الشك عنه) [1].

ولم يقتصر الأمر في توكيد هذا المعنى وتقويته على التذييل فحسب، بل نراه ﷺ قد قابل بين أجزاء الكلام استيعابا لحكم المتقابلات، وتقريراً للمراد، وترسيخا له في الذهن، بذكر كلا الأمرين في صحبة نقيضه، مما يجعل كل واحد منهما كالتوكيد لمعنى الآخر، فغلق أبواب النار يستدعى لكمال الفرح به أن تفتح أبواب الجنة، وكذا فتح أبواب الجنة يستدعى لتمام الفرح به ــ أيضا ــ أن تغلق أبواب النار، ومن هنا يثبت تأكيد كل جملة من الجملتين المتقابلتين لمعنى الأخرى،

وإذا ما تأمل المرء اللفظين الدالين على الغلق، والفتح وما فيهما من تضعيف يدرك أن المراد من ذلك هو توكيد ما يدلان عليه والتشديد على حصوله.

وقد قيل: (إن فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتحه الله ــ تعالى ــ لعباده من الطاعات، وتلك أسباب لدخول الجنة، وغلق أبواب النار عبارة عن صرف الهمم عن المعاصي الآيلة بأصحابها إلى النار) [2]، (والأولى الحمل على الظاهر حيث لا ضرورة تدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهره)[3]، فما الداعي إلى التأويل والقول بالكناية والمجاز مع أن الحقيقة ــ هنا ــ أبلغ لما فيها من مبالغة في حصول الرحمة، وصرف العذاب تكريما لشهر الصوم، وحال الصائمين.

ومما يعظم ويؤكد رحمة الله ــ تعالى ــ في شهر الصوم، عدم الاقتصار على غلق أبواب النار، وفتح أبواب الجنة مع كفاية ذلك في إثبات سعة الرحمة، وزيادة التكريم، بل يكلف ربنا ــ جلا في علاه ــ ملكا ينادي في الخلق بقوله:"يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصِر" (أي يا طالب الخير تعال فإن هذا أوانك، فإنك تعطى الثواب الجزيل بالعمل القليل، ويا مريد المعصية أمسك عن المعاصي وارجع إلى الله ــ تعالى ــ فهذا أوان قبول التوبة، وزمان المغفرة) [4].

---

(١) ينظر: الإيضاح ٣/٢٠٥ ــ ٢٠٨ ــ وشروح التلخيص ٣/٢٢٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: تحفة الأحوذي ٣/٩٤.

(٣) ينظر: السابق نفسه.

(٤) ينظر: تحفة الأحوذي ٣/٩٤.

فهذا النداء يؤكد حرص ربنا ــ سبحانه ــ على ما فيه خير العباد وصالحهم، لما يفيده القول بغلق أبواب النار، وفتح أبواب الجنة من دعوة غير صريحة إلى التزام سبل الخير، وهجر سبل الشر أكدها هذا النداء وقرر أمرها،

ومن أجل التأكيد على عموم النداء هنا جعل النبى ﷺ المنادَى وصفاً يشمل كل من يصح توجيه النداء إليه ودعوته، رغبة فى عموم فعل الخير، وترك الشر، توافقاً مع الروح الإيمانية، والعطاءات الربانية السائدتين فى شهر الصوم، ولا يخفى ما بين الندائين من تقابل يؤكد المعنى المراد، ويزيد السامع رغبة فى فعل الخير، ونفوراً من الشر.

ويبلغ التأكيد على فضل شهر الصوم، وسعة رحمة الله ــ تعالى ــ فيه ذروته عندما يقف السامع على قوله ﷺ: "ولله عتقاء من النار" فيشعر بفرحة غامرة لما أُخبر به فى هذا القول ولما يحسه من عناية واهتمام بتحقق معناه، يمثلهما التقديم للمسند ــ الجار والمجرور (لله) على المسند إليه "عتقاء من النار" وما يفيده هذا التقديم من قصر يؤكد المعنى المراد، وكثرته أيضا لما يشعر به تنكير قوله: "عتقاء" مِن كثرة مَن يُعتق فى هذا الشهر مما يفتح باب الأمل واسعاً أمام الجميع .

ومما يوحى بتتابع الرحمات فى شهر الصوم مع التأكيد على كثرتها قوله ﷺ: " وذلك كل ليلة". وقد قيل: (إن الإشارة بقوله : "ذلك" إما للبعيد وهو النداء، وإما للقريب وهو الإخبار بما لله ــ تعالى ــ فى هذا الشهر من عتقاء) [1]، والأولى عندى اعتبار الإشارة لكلا الأمرين تكثيراً للرحمة، وتعظيماً للعطاء، وجذباً أكثر للنفوس إلى طاعة الله ــ تعالى ــ وعبادته.

* * *

ومما تميز به الصوم عن سائر العبادات ما أخبر به النبى ﷺ بقوله :

"لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِيْنَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِيْنَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ"[2].

فما أعظم أن ينجز الإنسان ما يكلف به من عمل، وعند فراغه منه يشعر براحة، وفرحة تغمر قلبه، وفوق ذلك يجد الفرح الأكبر عند لقائه بسيده ومولاه الذى قام بالعمل طاعة له، وامتثالاً لأمره، وهكذا حال الصائم المحتسب إذا أفطر فرح بزوال تعبه، وجوعه، وعطشه، وبتمام عبادته، وإذا لقى ربه فرح لما يجده عنده من ثواب وعطاء على صومه.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٣/٩٥.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى: كتاب الصوم، باب ما جاء فى فضل الصوم، رقم (٧٦٦) .

وفى هذا الحديث يقرر النبى ﷺ هذا المعنى عناية به، واهتماماً بأمره، وذلك بعرضه فى أسلوب بيِّن، مُوجز، مؤكَّد.

فأما بيانه فلتحقق العلم بمعناه، ووضوحه وضوحاً لا لبس فيه ولا إشكال، وأما إيجازه: فلقلة ألفاظه مع كثرة ما حوت من معان تفيض كثرة، ويعود الكاتب الفذ بعد طول ما كتب فيها معترفاً بتقصيره، وعدم وفائه بحقها.

وكيف لا؟ وكلامه ﷺ كما وصفه الجاحظ بأنه (الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، فلم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ)[1]. "فالبلاغة النبوية كأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم"[2].

وأما تأكيده: فنجده حاصلا بأكثر من مؤكِّد أذكر من ذلك أولا: القصر بطريق التقديم فى قوله ﷺ: "للصائم فرحتان" فنرى أن تقديم المسند هنا "للصائم" قد أكسب هذا القول تقريراً وتوكيداً بقصر المسند إليه "فرحتان" عليه قصراً حقيقياً تحقيقياً ، إذ من خلاله يرسخ فى ذهن السامع عدم تجاوز هاتين الفرحتين الصائم إلى غيره لتلبسه حقيقة بسببهما وهو الصوم،

هذا: ولما فى قوله ﷺ:"للصائم فرحتان، من إيهام، وخفاء يُحدث تشوقا عند السامع، ورغبة فى الوقوف على إيضاحه، نراه ﷺ بادر إلى التوضيح، والتفصيل لحال المبهم بقوله:"فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى ربه" مؤكداً على عظيم فضل الله على الصائم، وجزيل ثوابه له، ومضاعفاً بذلك التوكيد للمعنى الذى أكدته جملة المبهم تمكينا له فى نفس السامع.

(فالشئ إذا جاء بعد الشوق إليه يقع فى النفس فضل وقوع، ويتمكن أى تمكن، ويكون شعورها به أتم) [3]، ولم لا وقد طرق المعنى المراد أذن السامع مرتين: إحداهما: حال إبهامه، والأخرى: حال توضيحه وبيانه.

---

(١) ينظر: البيان التبيين، للجاحظ، ت / عبد السلام هارون، ١٦/٣، وما بعدها،

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تأليف: مصطفى صادق الرافعى، ص٢٣٣، مكتبة الإيمان ، المنصورة ١٤١٧هـ

(٣) ينظر: الإيضاح ١٩٦/٣ ــ وشروح التلخيص ٢١٠/٣، ٢١١.

ولعل من يتأمل جملتى التفصيل يقف على ما فيهما من توكيد آخر يمثله التكرير للفظة "فرحة" تقوية لمعنى الوعد، وتثبيتا له عند السامع، وإمعاناً فى تقرير ما يسره ويزيده رغبة فى السبب وهو الصوم .

ولا يخفى ما فى تنكير لفظة "فرحة" من دلالة على التعظيم التكثير، مع ما يستدعيه التنكير من إفساح للمجال أمام خيال السامع فى تصور كنه الفرحة الموعودة، وتخيل أبعادها.

فما أعظم الصوم، وما أسعد النفوس المتعبدة به، فقد جمع لها الصوم بين فرحتين: إحداهما: يحس أثرها عاجلاً حال فطره، والأخرى: يعظم إحساسه بثوابها حين يلقى ربه، ويطلعه على عمله الذى قدم فيخص الصوم من بينه بالفرح والسرور، وكأنه ما قدم غيره لعظيم ما يجد عنده ــ تعالى ــ من ثواب خاص به.

obeikandl.com

المبحث الخامس

التوكيد في مقام الحديث عن الحج

obeikandl.com

المبحث الخامس

التوكيد فى مقام الحديث عن الحج

الحج هو الركن المتمم لأركان الإسلام الخمسة، وحقيقته: القصد إلى البيت الحرام بأعمال مخصوصة تقربا إلى الله ــ تعالى ــ، وهو من أعظم القرب، وأشرف الوسائل، إذ به يطهر الإنسان نفسه من دنس الذنوب التى علقت به، ويعود كيوم ولدته أمه بريئا من كل ذنب مطهرا من كل إثم.

وكما أن الحج ينفى عن العبد ذنوبه، فهو أيضا ينفى عنه الفقر، ويخلصه من ضيق المعيشة، وأعظم من ذلك الوعد المؤكد لصاحب الحج المبرور بدخول الجنة، والتمتع بنعيمها، يُصدّق هذا قول النبى ﷺ:

"تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِى الكِيْرُ خبثَ الحَدِيْدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةُ"(١).

فالنبى ﷺ فى هذا الحديث يرشد أمته إلى سبيل الخلاص من أمرين يكدران صفو حياة المسلم، ويقضان مضجعه، وهما: الفقر والذنوب، فيقول: "تابعوا بين الحج والعمرة" (أى: قاربوا بينهما إما بالقران، أو بفعل أحدهما بعد الآخر، فإذا اعتمرتم فحجوا، وإذا حججتم فاعتمروا) (٢) آمرا بفعل المأمور به على سبيل النصح والإرشاد.

ولما فى جملة الأمر هذه من إبهام وخفاء، ولما تثيره فى نفس السامع من تساؤل عن الحكمة والعائد الذى يجنيه المرء إن هو امتثل للأمر وعمل بمقتضاه، نرى النبى ﷺ يُتبع ذلك الأمر بما يوضح معناه ويبين الحكمة والعائد منه، ويؤكد على أهمية المأمور به وضرورته بقوله: "فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكيرُ خَبَثَ الحديد والذهب والفضة"، فمن خلال هذا الإيضاح يتأكد المعنى المراد، وتزداد النفس إقبالا على ما أُمرت به لما تمكن عندها من عظيم فائدته، وتسببه فى خلاصها مما يفسد متعتها ويذهب براحتها فى الدنيا والآخرة وهما الفقر والذنوب.

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الحج، باب ما جاء فى ثواب الحج والعمرة، رقم (٨١٠). والكير: كير الحداد، وهو المبنى من الطين، وقيل: الزَّقُّ الذى يُنفَخ به النار ــ والخَبَثُ: هو ما تلقيه النار من وسخ الفضة والنحاس وغيرهما إذا أُذيبا ــ النهاية فى غريب الحديث مادتا : [كير، وخبث] .

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٣/٢٤٢.

(سواء فى ذلك فقر اليد وفقر النفس، وكذا صغير الذنوب وكبيرها، لدلالة السياق على ذلك، وعموم معنى اللفظين ــ الفقر والذنوب ــ وعدم وجود ما يخصهما) [1].

وإبرازا لقيمة الحج والعمرة، وتأكيدا على أثرهما القوى فى محو الفقر، والذنوب عن المسلم نرى النبى ﷺ قد أسند إليهما الفعل المذكور على سبيل التجوز بأسلوب المجاز العقلى لعلاقة السببية، إذ الفاعل الحقيقى لذلك هو الله ــ تبارك وتعالى ــ وعلى ذلك ففى الإسناد المجارى هنا مبالغة فى التأكيد على أهمية السبب، مع إيجاز العبارة وقربها من الأفهام.

(فالمجاز العقلى من شأنه أن يفخم المعنى عليه وتحدث فيه النباهة، وهو كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الإبداع والإحسان، والاتساع فى طرق البيان)[2].

ونظرا لاهتمامه ﷺ بالتأكيد على ما أثبته من فضل للحج والعمرة نراه صدّر جملة الإيضاح السابقة بإنّ الداخلة على ضمير الشأن فى قوله "فإنهما" تمكينا للمعنى فى ذهن السامع.

وتصعيدا لما بدأه ﷺ من تأكيد على فضل الحج والعمرة، وجذبا أكثر للنفوس إلى التقرب إلى الله ــ تعالى ــ بهما نراه -ﷺ- صور أثرهما وهو من الأمور المعنوية تصويرا حسيا يزيد من تخيل السامع له، ويؤكد فعاليتهما فى نفى الفقر والذنوب، وذلك حيث قال: "كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة" فكما يصهر الصانع هذه المعادن تصفية لها من الشوائب العالقة بها يصهر الحج والعمرة المسلم فى ميدان الطاعة، والعبودية، والتذلل والامتثال لأمر الله ــ تعالى ــ، طلبا لنفى الفقر، والذنوب عنه.

وأرى أنه كان يكفى فى التمثيل ذكر نوع واحد من هذه المعادن الثلاثة المذكورة، ولكن يبدو أن النبى ﷺ قد ذكر الأنواع الثلاثة إشارة إلى صنوف الناس ومراتبهم بالنسبة للفقر والذنوب، ودلالة على أنه برغم تفاوتهم فى ذلك فالنفى والمحو سواء للجميع وذلك من سعة رحمة الله ــ تعالى ــ وفضله.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى، ٧/ ٢٤٢

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ص ٢٩٤ ، ٢٩٥.

ويبلغ الترغيب فى التقرب إلى الله ــ تعالى ــ بالحج والعمرة ذروته مع الوقوف على قوله ﷺ: "وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة" وتأكيده على ذلك بأسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء ــ وما أقواه من مؤكد ــ نافيا أى ثواب للحجة المبرورة عدا دخول الجنة. وما أعظمه من ثواب، وهذا لا يعنى ألا يشعر الحاج حجا مبرورا بأثره الطيب فى الدنيا كنفى الفقر مثلا السابق ذكره هنا، أو الإحساس باطمئنان القلب، وسعادة النفس، أو غير ذلك، ولكن يُراد من هذا التعبير أنه وإن تعددت صنوف النعم وأنواع الثواب على الحج المبرور إلا أن ذلك كله يصبح غير معتد به فى مقابلة دخول الجنة، وبذلك تتأكد هذه النتيجة العظيمة، ويتقرر أمرها فى ذهن السامع، فيجتهد ألا يفوته تحصيلها.

* * *

ورغبة من النبى ﷺ فى زيادة أجر الحاج، وتعظيم ثوابه، ورجاء القبول منه يوجهه إلى ما يُوفِّق بسببه إلى تحقيق ذلك، فيقول ﷺ :

"الطَّوَافُ حَوْلَ الْبَيْتِ مِثْلُ الصَّلاةِ إِلَّا أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ فَلا يَتَكَلَّمَنَّ إِلَّا بِخَيْرٍ"(١).

فالطواف حول البيت ركن من أركان الحج، وموطن من مواطن تجلى رحمات الله ــ تعالى ــ على الحجيج يشعرون أثناء أدائه بمعانى العبودية الكاملة، تغمرهم الخشية، ويحدوهم الرجاء، ومن هنا كان تنبيه النبى ﷺ فى هذا الحديث على أهمية الخشوع، والتزام السكينة أثناء أداء هذه العبادة.

وتمكينا لهذا المعنى فى نفوس السامعين، وتأكيدا على أهميته نراه ﷺ قد ساوى بين الطواف وبين عبادة تمثل السكينة والخشوع أصدق تمثيل ــ إنْ هى أُديت كما ينبغى لها ــ وهى الصلاة، فقال: "الطواف حول البيت مثل الصلاة" ففى هذا القول تشبيه للطواف حول البيت بالصلاة فى كونه عبادة تتطلب لقبولها وكثرة ثوابها السكينة والخشوع استشعارا لجلال البيت ومهابة صاحبه.

ونظرا لكون الكلام أثناء الطواف مباحا فقد استثناه النبى ﷺ من المشابهة بقوله: "إلا أنكم تتكلمون فيه"، (فالتماثل بين الطواف والصلاة معتبر فى كل شئ وجودا و عدما إلا فى الكلام وما فى معناه من المنافيات من الأكل والشرب، وسائر الأفعال الكثيرة) (٢).

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى، كتاب الحج، باب ما جاء فى الكلام فى الطواف، رقم (٩٦٠).

(٢) ينظر: تحفة الأحوذى ٣/٣٩٦.

وفى تخصيص الكلام هنا بإخراجه من أوجه المشابهة، والتأكيد على فعله بأنّ المؤكدة إيحاء بأنه الأكثر وقوعا لصعوبة حجز النفس عن الكلام، ولعدم الكلفة فى فعله، ومن ثم نبه النبى ﷺ إلى أن للكلام أثناء الطواف حدا لا ينبغى تجاوزه فقال: "فمن تكلم فيه فلا يتكلمن إلا بخير" "من ذكر الله، وإفادة علم، واستفادته على وجه لا يشوش على الطائفين"[1] وما عدا ذلك مما يصرف الطائفين عن التفكر فى جلال الموقف، والاجتهاد فى مناجاة الله ــ تعالى ــ فهو غير مباح ومنهى عنه صراحة مع التأكيد على ذلك بتقرير النبى ﷺ لصيغة النهى وتأكيدها بأكثر من مؤكد.

ومن ذلك نون التوكيد الشديدة اللاحقة للفعل المنهى عنه فى قوله ﷺ : "فلا يتكلمنّ" فالنون من مؤكدات الجملة الفعلية، وهى إما شديدة كما هنا أو خفيفة، "والشديدة أقوى دلالة على التأكيد من الخفيفة؛ لأن تكرير النون قد جُعل بمنزلة تكرير التأكيد"[2].

وفى استخدام النون الشديدة هنا دلالة على شدة الاهتمام بتقرير النهى، (فدخولها على الفعل بمنزلة ذكره ثلاث مرات) [3]، وذلك مما يزيد المعنى رسوخا فى ذهن السامع.

ومما يضاعف من التأكيد قصر النبى ﷺ إباحة الكلام أثناء الطواف على ما فيه خير، بطريق النفى والاستثناء، دفعا لأى ميل نفسى إلى الانشغال بالكلام الدنيوى-فضلا عما فيه من سوء-عن مقاصد الطواف السامية، وزيادة فى التأكيد على المباح من الكلام زاد النبى ﷺ الباء فى اللفظ الدال عليه فى قوله: "بخير" تحقيقا له، وعناية، واهتماما به.

* * *

وتوافقًا مع قواعد المنهج التعليمى يزداد اهتمام المعلم وعنايته بعظائم الأمور التى يكثر نفعها، ويجلّ شأنها، وعلى أساس هذا المنهج نرى النبى ﷺ يولى أحد أركان الحج وهو الوقوف بعرفة اهتماما زائدا يتميز به عن سائر مناسك الحج، يوضح ذلك قوله:

"الحَجُّ عَرَفَاتٌ، الحَجُّ عَرَفَاتٌ، الحَجُّ عَرَفَاتٌ، أَيَّامُ مِنىً ثَلاثٌ" فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيهِ" ، وَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ"[4].

---

(١) تحفة الأحوذى ٢/٢٩٦ .

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد ت ٤/٣١٦، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ــ وينظر: مغنى اللبيب ص٤٤٣ .

(٣) ينظر: البرهان ٢/٤١٩.

(٤) الجامع الصحيح للترمذى ، كتاب تفسير القرآن، باب" ومن سورة البقرة رقم (٢٩٧٥).

الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج إذ به يُدرَك، ومن ثَم أكد النبى ﷺ على أهميته بأن جعل عموم الحج يمثله هذا الركن فقال: "الحج عرفات، الحج عرفات، الحج عرفات"، "أى ملاك الحج، ومعظم أركانه وقوف عرفات لأنه يفوت بفواته"[١].

فنرى التأكيد على أهمية الوقوف بعرفة يمثله التكرير لجملة "الحج عرفات" ثلاث مرات، مع قصر المسند إليه "الحج" على المسند "عرفات" بطريق التعريف للمسند إليه بأل الجنسية تحقيقا للمبالغة فى التوكيد تلك المبالغة التى تُرسِّخ فى ذهن السامع توقف صحة الحج على الوقوف بعرفة فيحرص على ألا يفوته، ويجتهد فى التضرع والدعاء حال وقوفه به عسى أن يكون ممن يغفر الله ــ تعالى ــ لهم، ويرحمهم ببركة هذا الموقف العظيم.

ومتابعة لبيان أعمال الحج، وتوضيحا لمناسكه يقول النبى ﷺ: "أيام مِنى ثلاث فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه".

(فأيام مِنى هى أيام التشريق، وهى الأيام المعدودات، وأيام رمى الجمار، وهى الثلاثة التى بعد يوم النحر) [٢]، وبهذا القول يحدد النبى ﷺ عدد هذه الأيام بحصرها فى العدد "ثلاثة"، وينبه على جواز التعجل، والتمهل فى أداء أفعالها، (فمن تعجل فى الخروج من منى فنفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق بعد رمى جماره فلا إثم عليه، ومن تأخر عن النفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق إلى اليوم الثالث حتى بات بمنى ليلة الثالث، ورمى يوم الثالث جماره فلا إثم عليه، وهو الأفضل لكون العمل فيه أتم لعمله ﷺ)[٣].

ونرى فى هذا التوضيح تقريرا منه -ﷺ- لما يباح فعله للحاج أيام الرمى، وذلك باقتباسه النص القرآنى الدال على ذلك، وتضمينه حديثه، والنص القرآنى هو قوله- تعالى-: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[٤]، وفى ذلك تقرير لما نطق به القرآن الكريم، تأكيدا على سماحة الإسلام، ويسره "إذ الاقتباس أن يأخذ المتكلم كلاما من كلام غيره يدرجه فى لفظه لتأكيد المعنى الذى أتى به"[٥]، كما أن تذكر الآية الكريمة عند سماع

---

(١) تحفة الأحوذى : ٧/٤٠٠.

(٢) ينظر السابق ٧/٤٠١.

(٣) ينظر: السابق نفسه .

(٤) سورة البقرة، بعض آية رقم (٢٠٣).

(٥) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. لابن قيم الجوزية، صـ١٣٤، مكتبة المتنبى القاهرة ـــ وينظر: الإيضاح ٦/١٣٧- ١٤٠ - شروح التلخيص ٤/٥٠٩ وما بعدها.

الحديث الشريف يشعر السامع وكأن المعنى قد تكرر عرضه عليه مرتين فى آن واحد، فيرسخ فى ذهنه، ويتأكد المراد منه.

وزيادة فى التأكيد على أهمية الوقوف بعرفة نرى النبى -ﷺ- يعاود الحديث عنه توضيحا لما يُدرَك به هذا الموقف العظيم، بقوله: "ومن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك الحج" (أى: من جاء عرفة ووقف به ليلة المزدلفة قبل طلوع الفجر يوم النحر لم يفته الحج وأمن من الفساد) [1]،

ويؤكد النبى -ﷺ- هذه الحقيقة بقد التحقيقية التى تفيد تقرير المعنى وتثبيته مع الإشعار بتشوق السامع إليه، "فهى لا يُؤتَى بها فى شئ إلا إذا كان السامع متشوقا إلى سماعه"[2]، وما أشد شوق السامع إلى معرفة ما يتمم حجه.

وفى تسليط النبى -ﷺ- الفعل "أدرك" -الأول- على المكان" عرفة" دون الحدث وهو الوقوف مع عدم ذكره إيجاز بحذف المضاف يؤكد سماحة الإسلام ويسره إذ يقرر أن إدراك هذا الركن العظيم يتحقق بمجرد التواجد بأرض عرفة على أى هيئة يستطيعها الإنسان، وفى أى جزء منه رحمة بالخلق، ومراعاة لأحوالهم، فما فُرضت الفرائض، وسُنت السنن إلا رحمة، وتفعيلا لخُلق الرحمة فيما بينهم، فطوبى لمن لبى نداء ربه، وأتم أركان بناء دينه بحج بيت الله -تعالى تطهيرا لنفسه من أوزارها، وعودة بها إلى يومها الأول فى الدنيا تهيئة لموعود الله -تعالى- بالجنة.

• • • • • •

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٣/٣٢٥.

(٢) البرهان ٢/٤١٧.

المبحث السادس

التوكيد في مقام الحديث عن الجهاد

obeikandl.com

المبحث السادس

التوكيد في مقام الحديث عن الجهاد

(الجهاد مأخوذ من الجَهد، وهو الطاقة والمشقة، إذ هو استفراغ الإنسان ما في وسعه وطاقته من قول أو فعل في الحرب ومقاتلة العدو) [1]،

فهو أساس عزة الأمم، ورفع راية الشعوب، وهو درع الحق، وسبيل ظهوره، ولَنعم الوسيلة هو للفوز بالقرب من الله -تعالى- إذ به تعلو كلمته -تعالى- ويُمكَّن لنشر دينه في الأرض، يوضح لنا ذلك ما رواه الصحابي الجليل أبو هريرة -ﷺ- بقوله:

"مَرَّ رجلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ، فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا، فقال: لَوْ اعتزلْتُ النَّاسَ فأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- فذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ -ﷺ-، فقَالَ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمُ الجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ"[2].

فهذا الحديث يؤكد عِظم منزلة الجهاد في سبيل الله، وفضله على سائر العبادات الأخرى حيث نهى النبي -ﷺ- الصحابي الذي استأذنه في الإقامة في الشِّعب الذي أعجبه منظره، والانقطاع فيه للعبادة مُبينا له ما هو أفضل عند الله -تعالى-، وأنفع لدينه، وهو الجهاد، فهو أفضل السبل لمغفرة الذنوب، ووجوب الجنة التي ما تمنى الصحابي الانقطاع في الشِّعب للعبادة إلا طلبا لها، وأملا في دخولها،

فنراه -ﷺ- بادر طلب الصحابي بقوله: "لا تفعل" ناهيا له عن فعلِ ما جال بخاطره، وتمنته نفسه، ولما في صيغة النهي من إبهام يدعو السائل والسامع أيضا إلى التفكير مليًّا في

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة : (جهد).

(٢) الجامع الصحيح للترمذي. كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله. رقم (١٦٥١). والشِّعب: ما انفرج بين جبلين، وقيل: هو الطريق في الجبل. لسان العرب مادة: (شعب)- وفُواق ناقة: هو ما بين الحلبتين من الراحة، وتضم فاؤه وتفتح (النهاية في غريب الحديث، مادة: (فوق)

معرفة السبب- فالطلب يتعلق بالعبادة والطاعة لا إثم فيه ولا باطل فرى النبى -ﷺ- يُعقِّب نهيه بما يكشف عن سببه، ويزيل الغموض الذى يكتنفه بقوله: "فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما"، مبينا بذلك أن الانقطاع للصلاة والعبادة وإن كان فيه خير للمسلم بدلالة التعبير بصيغة أفعل التفضيل، (التى تدل على أن طلب الصحابى كان مفضولا لا محرما) [1]، إلا أن هناك عملا يفوقه أجرا ونفعا وهو الجهاد فى سبيل الله، مفضلا الثبات عليه إعلاء لكلمة الله، ونشرا لدينه، على الثبات على أداء الصلاة فى البيت سبعين عاما، مع تأكيد هذا الحكم وتقريره فى نفس السامع بإنَّ المؤكدة التى تُشعر بأهمية ما يذكر بعدها، فيتنبه السامع له، فيرسخ فى ذهنه، ويثبت عنده، وفى ذلك مزيد عناية واهتمام بالمعنى المراد، وفى اختياره -ﷺ- للصلاة مُفضَّلا عليه إشعار بتناهى الأفضل وهو الجهاد فى سبيل الله فى الفضل نظرا لتفضيله على عبادة سائر العبادات تبع لها فى الفضل وهى الصلاة.

(والتوقيت للثبات على العمل المفضول بسبعين عاما يراد به الدلالة على الكثرة لا التحديد) [2] "فقد تكرر ذكر السبعة، والسبع، والسبعين، والسبعمائة فى القرآن وفى الحديث، والعرب تضعها موضع التضعيف والتكثير"[3]، (إذ يستكثرون فى الآحاد بالسبعة، وفى العشرات بالسبعين، وفى المئين بسبعمائة) [4].

وبعد تفضيله -ﷺ- للجهاد فى سبيل الله على الانقطاع للصلاة والعبادة سبعين عاما، نراه يوجه للسامعين سؤالا يثير فيهم الدهشة والعجب، وذلك بقوله: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟" بادئا السؤال بأداة التنبيه التى تفيد العرض " أَلَا "، حرصا على تحقق المسؤول عنه لأمته.

وبعد أن يطرق السؤال أذن السامعين يسأل كل منهم نفسه قائلا: ومَن منا لا يحب ذلك، ولكن كيف السبيل؟ وإذا بالجواب يأتى سريعا ومباشرا منه -ﷺ- بقوله: "اغزوا فى سبيل الله" موفرا على السائل السؤال، ومقللا من استشرافه النفسى، ومقررا المعنى المراد بدفع الشك عنه، يفاد ذلك من أسلوب الفصل لشبه كمال الاتصال بين جملة "اغزوا...." وسابقتها التى حوت سؤالا مقدرا.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٥/٣٩.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣) لسان العرب، والنهاية فى غريب الحديث مادة: (سبع).

(٤) ينظر: تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى، ت/ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، ٥/٧٩، ط١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ولا يخفى ما فى التعبير بالأمر "اغزوا" من حث زائد منه -ﷺ- على الجهاد لما له من أثر وفضل عظيمين.

وفى ختام الحديث يزف النبى -ﷺ- بشرى وجوب الجنة لكل من جاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه الحق بقوله: "مَن قاتل فى سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة"، وهنا فليعقد السامع الفطن مقارنة بين طلب الصحابى الانقطاع فى الشِّعب للعبادة إلى أن توافيه منيته رغبة فى نيل رضا الله -تعالى-، ودخول الجنة، وبين تحقق نفس النتيجة - مع الفارق فى المنزلة- بسبب الجهاد فى سبيل الله -تعالى- فترة يسيرة جدا كنى النبى -ﷺ- عن قصر زمنها بقوله :"فواق ناقة"، وفى نهاية المقارنة سوف يتأكد له شرف الجهاد، وفضله على سائر العبادات الأخرى، وبذلك يزداد رغبة فيه، وإقبالا عليه، وحرصا على إخلاص النية فى طلبه، حتى تتم الفائدة المرجوة من ورائه، ولذا أكد النبى -ﷺ- على ضرورة الإخلاص بتكريره ما يحققه وهو قوله: "فى سبيل الله" تتويجا لهذا العمل الأفضل بما يجعله مقبولا عند الله -سبحانه وتعالى-.

* * *

ولما فى الجهاد من بذل لأغلى ما يملك الإنسان وهو النفس، نرى النبى -ﷺ- يتَّبع فى سبيل الحث على ذلك تأكيد البشارة والوعد بالحصول على أغلى ما تشتهيه النفس وهو الجنة، وهذا ما دعا أحد الصحابة عندما سمع ما قاله النبى -ﷺ- فى هذا الخصوص إلى العزم على تحقيقه.

"فعن أبى بَكرِ بن أبى موسى الأشعرى قال: سمعتُ أبى بِحَضْرَةِ العدو يقول: قال رسول الله -ﷺ-: "إِنَّ أَبْوَابَ الجَنَّةِ تَحتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ. فَقَال رجلٌ مِنَ القَومِ رَثُّ الهَيْئَةِ: أأنت سمِعت هذا من رسولِ اللهِ -ﷺ- يذكرُه؟ قال: نَعم. فرجَع إِلى أَصْحابِهِ، فقَال: أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السلام، وكسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ، فَضرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ"(١).

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب فضائل الجهاد، باب ما ذُكر أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف. رقم (١٦٥٩). والرث: الخَلِق الخسيس البالى من كل شئ، ورجل رث الهيئة فى لبسه، وأكثر ما يستعمل فيما يلبس- والجَفن: غِمْد السيف- لسان العرب مادتا: (رثث، وجفن).

فالصحابى الجليل أبو موسى الأشعرى -رضي الله عنه- يتخذ من هذا القول للنبى -ﷺ- وسيلة يعبئ بها طاقات جنده، ويشحذ بها هممهم، وهم بحضرة العدو، وفى انتظار ملاقاته حتى يجعل كل واحد منهم قول النبى -ﷺ- هدفا يسعى من أجل تحقيقه، فيكون النصر حليفا للمسلمين، يسعد حيهم به، وشهيدهم بالجنة.

(فهذا القول النبوى يقصد به أن الجهاد، وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها، وفى ذلك ترغيب فى الجهاد وحث عليه) [1]، ومن ثم نرى النبى-ﷺ- صدّر قوله بإنّ التى تفيد تقرير مضمون الكلام الداخلة عليه، وما أن تقرع أذن السامع حتى تشعره بأهمية ما يلقى عليه، فيتنبه له، ويصغى إليه، فإذا بالقول الكريم يحمل بشارة سارة، ووعدا مفرِحا يترتب حصوله على فعل ما يحقق إعلاء كلمة الله -تعالى-، ونشر دينه، ونصرة الحق وهو الجهاد فى سبيل الله -تعالى- الذى كنى عنه النبى -ﷺ- بقوله: "تحت ظلال السيوف"،

وقد قيل: (إن الكناية هنا عن الدنو من العدو فى الحرب بحيث تعلو السيوف المقاتل حتى يصبح وكأنه مستظل بها) [2]،

وبذلك يتحقق مفهوم بيع المجاهدين أنفسهم مقابل أغلى سلعة وهى الجنة الوارد ذكره فى قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [3].

ولا يخفى ما يوحى به عموم الحديث من الكناية عن سرعة الوصول إلى الجنة، وفورية دخولها، فما أن يُرزق المسلم الشهادة فى سبيل الله حتى ينقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، وتفتح له أبواب الجنة على مصارعها لينعم بما شاء وقتما شاء، وكيفما شاء،

وفى التعبير من خلال الكناية تقرير لهذه السرعة مع إيجاز فى تصوير فضل الجهاد، ومن ثم كان بمثابة المفتاح لأبواب الجنة، وذلك تبعا لذكر الأبواب التى تستدعى لفتحها مفتاحا يمثله هنا الجهاد فى سبيل الله.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٤٦/٥.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣) سورة التوبة آية رقم (١١١).

ولإعجاب القوم، وشدة فرحهم بما سمعوه من أبى موسى الأشعرى -ﷺ- حال استنفاره هممهم وهم بحضرة العدو قام أحدهم إليه مستفهما عن مدى صحة ما سمعه منه بقوله: "أأنت سمعت هذا من رسول الله -ﷺ-" بأسلوب المقرِّر المستوثِق، وعندما أجابه بنعم، كان رد الفعل سريعا وملائما، حيث عزم السائل على ألا يطول عهده بالدنيا، وأن تفتح له أبواب الجنة بسبب مباشرته لأعظم أسباب فتحها وهو الجهاد فى سبيل الله -تعالى-،

يتبين لنا ذلك من قول الراوى: "فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، وكسر جفن سيفه، فضرب به حتى قُتل" فلقد ودَّع أصحابه الوداع الأخير، وعزم على ألا يغمد سيفه مرة ثانية، وذلك بكسره لجفنه الذى يواريه، وظل يقاتل به مستظلا بظله حتى نال ظلا أعظم لا ينقطع، وهو ظل الجنة، فأنعم بفعله، وأعظم بثوابه.

* * *

ويُهوِّن النبى -ﷺ- من خطب القتل فى ميدان الجهاد بقوله:

"مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ"[1]

فربما يضن الإنسان بنفسه، ويجبن عن المشاركة فى القتال لا رغبة فى الحياة ولكن خوفا من ألم القتل الذى قد يُهوِّل الشيطان له من أمره، ويصوره له بصورة شديدة تدعوه إلى التقاعس، وتثبط من همته،

ومن أجل ذلك نرى النبى -ﷺ- يقرر فى هذا الحديث حقيقة هامة وهى أن ألم القتل فى سبيل الله يشبه فى يسره ألم القرصة حثا على بذل النفس وعدم الاستجابة لداعى الجبن والتخاذل.

ولما كان فى هذا القول من مبالغة فى التهوين من ألم القتل قد يتسرب بسببها الشك إلى النفوس الضعيفة رأينا النبى -ﷺ- يحتاط لذلك بتأكيده لقوله بمؤكِّد قوى يدفع الشك عنه، ويحمل على التسليم بصحته، واليقين بصدقه، هذا المؤكد هو القصر بطريق النفى والاستثناء، فقد قصر النبى -ﷺ- ما يجده الشهيد من ألم القتل على ما يجده الإنسان من ألم القرصة قصرا حقيقيا تحقيقا يكتسب القول بسببه قوة وتأكيدا يُبلِّغانه المراد منه، ويحققان له ما ينشده

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء فى فضل المرابط. رقم (١٦٦٨)

والمس: هو أول ما يُحس به من التعب والألم- والقرصة: القرص بالإصبعين وقيل: التجميش والغمز بالإصبع حتى تؤلمه- لسان العرب مادتا: [مس،وقرص].

وفى التعبير عن الألم بالمس مبالغة في تقرير بلوغه فى اليسر حدا متناهيا، ومن ثم لا ينبغى أن يكون معوقا عن الجهاد فى سبيل الله.

ولا يخفى ما للصورة التشبيهيه فى الحديث الشريف من أثر فى تأكيد ضآلة ألم القتل فى سبيل الله -تعالى- وتقرير يسره بتشبيهه بشئ قد لا يوجد له ألم أصلا، وإن وُجد فهو ألم جد يسير لا يُعبأ به، يؤخذ ذلك من تكرير لفظ المس فى صورة المشبه به، وتقييده به.

لقد بلغ النبى -ﷺ- بهذا القول الموجز من الإيضاح لحقيقة القتل فى سبيل الله، والحث على بذل النفس، والتأكيد على ضآلة الألم الذى يجده الشهيد حال قتله مالا يبلغه القائد اللَّسن الذى يطيل الوقوف بين يدى جنده خطيبا حثا لهم على الجهاد، وعدم مهابة القتل فى سبيل الله -تعالى-.

obeikandl.com

المبحث السابع

التوكيد فى مقام الحديث عن الدعاء و الذكر

obeikandl.com

المبحث السابع

التوكيد فى مقام الحديث عن الدعاء و الذكر

الذكر هو ما يجرى على اللسان من تسبيح وتحميد وتمجيد وثناء على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله[1].

ومنه الدعاء وهو من أهم وأعظم وسائل القرب من الله -تعالى- حيث لا مؤنة ولا جهد فى فعله، ولازمان يحول دون أدائه، به تُقضى الحوائج، وتفرج الكرب (وهما مما يشعر الإنسان بضعفه فى الحياة، ومن ثم فهو يلتمس المخرج لنفسه بالالتجاء إلى قوة كبيرة تنقذه من شدته، وتنشله من عذابه، ولن يكون لدى المسلم الصادق قوة أعظم من خالقه ومحييه، لذلك كان الالتجاء إلى الله -تعالى- فى كل أمر مفزعا طبيعيا يهرع إليه المؤمنون واثقين بعونه، وليس لهم غير أن يترجموا عن أزماتهم الكاربة بكلمات صادقة مخلصة تتمثل فى الدعاء)[2]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.....﴾[3]

ونظرا لأهمية الدعاء، وتأكيدا على عظيم فضله، ورفعة شأنه يقرر النبى -ﷺ- اشتماله لمعانى العبادة، وتمثيله لها، بما رواه عنه النعمان بن بشير -رضي الله عنه- بقوله:

قال رسول الله -ﷺ-: "**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**، ثُم قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4].

وإنما كان الدعاء ممثلا للعبادة، وجامعا لمعانيها (لأنه سبيل لإظهار العبد العجز، والاحتياج من نفسه، والاعتراف بأن الله -تعالى- قادر على إجابته، كريم لا بخل له ولا فقر، ولا احتياج له إلى شئ حتى يدخره لنفسه، ويمنعه من عباده، وهذه الأشياء هى العبادة، بل مخها)[5].

---

(١) ينظر : لسان العرب ، مادة : [ذكر]

(٢) ينظر: البيان النبوى، صـ١٩٩.

(٣) سورة البقرة، آية رقم (١٨٦).

(٤) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى فضل الدعاء رقم (٣٣٧٢) والآية رقم (٦٠) من سورة غافر وداخرين: الداخر: هو الذليل المهان. النهاية فى غريب الحديث، مادة: (دخر).

(٥) ينظر: تحفة الأحوذى ٣٧٥/٨.

ولكمال عنايته -ﷺ- بهذا المعنى، واهتمامه بتقريره نراه قد عرضه فى أسلوب يكسبه توكيدا، وتحقيقا يتمكن بهما فى نفس السامع، ويرسخ فى عقله، وذلك حيث قصر العبادة على الدعاء قصرا حقيقيا ادعائيا فى قوله: "الدعاء هو العبادة" مريدا بذلك المبالغة فى تحقق كمال المسند إليه، وهو الدعاء، وشموله لمعانى العبادة .

وسبيل هذا القصر هو تعريف ركنى الإسناد بأل الجنسية ومما يزيده تحققا توسط ضمير الفصل "هو" بين كل من المبتدأ والخبر دلالة على تأكيد المبالغة فى اختصاص المقصور عليه بالمقصور، ولقد قرر هذا المعنى الإمام عبدالقاهر بقوله: "إذا قيل لك: "زيد المنطلق" صار الذى كان معلوما على جهة الجواز معلوما على جهة الوجوب ثم إنهم إذا أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسمى فصلا بين الجزءين فقالوا: "زيد هو المنطلق" (١).

والحق أنه قد تردد كثير من البلاغيين فى إفادة ضمير الفصل معنى القصر ومن هؤلاء الزمخشرى (٢)، وبهاءالدين السبكى (٣)، وذلك نظرا لأنه إذا حذف هذا الضمير من الكلام المشتمل عليه فإن فائدة الحصر تظل كما هى، وإذا أعيد كان غرضه توكيد الدلالة على الحصر، ومن ثم فهو يأتى فى مواضع يحتاج معها إلى توكيد أكثر وتقرير مبالغ فيه كما هنا.

وتصعيدا لوتيرة التأكيد لهذا المعنى، وإلزاما للمخاطب بالتسليم بصدق ما يسمع، وقطعا لسبيل الشك، أو الاعتراض، نرى النبى -ﷺ- قد أقام الحجة على صدق قوله، وتأكيده

تأكيدا لا مزيد فوقه بإتباعه ما يقويه ويقرره، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فالآية الكريمة تفيد أن الدعاء عبادة، (وقد استدل بها النبى -ﷺ- على ذلك لأن الدعاء فيها مأمور به، والمأمور به عبادة، وقيل: إن استشهاده -ﷺ- بالآية لدلالتها على أن المقصود يترتب عليه ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، ويكون أتم العبادات، ويقرب من هذا قوله -ﷺ- فى حديث آخر: "الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ"، أى خالصها) (٤)،

---

(١) دلائل الإعجاز صـ١٧٨.

(٢) ينظر: الكشاف ١/٥٤.

(٣) ينظر: عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١/٣٨٧.

(٤) تحفه الأحوذى ٨/٣٧٤.

(ففى استناده- ﷺ- إلى دليل من القرآن الكريم تقرير للمعنى المراد فى نفوس المؤمنين، وإن كانوا مصدقيه دون توثيق بالدليل، ولكنه بذلك يفتح لهم باب النظر فى الكتاب الكريم، ويعرفهم كيف ينتفعون بالدليل ليُحكِّموا القرآن فى سلوكهم، ويجعلوه القياس لكل أعمالهم) [1].

* * *

ومن الدعاء الوارد عنه -ﷺ- قوله:

"اللَّهُمَ إِنِّى أَعوذُ بِك مِنْ قَلْبٍ لا يخْشَعُ، وَمِنْ نِدَاءٍ لا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاءِ الأَرْبعِ" [2]،

فالنبى -ﷺ- يُعلِّم أمته بهذا القول أمورا يتعوذون بالله -تعالى- منها طلبا للسلامة فى الدنيا والآخرة، فما ترك ﷺ أمرا يجلب خيرا، أو يدفع شرا إلا وعلمه أمته، ومن ذلك هذا الدعاء الذى بين أيدينا، فما استعاذ -ﷺ- من هذه الأشياء الأربع خشية أن يصيبه ضررها، فحاشاه ألا يخشع قلبه، وألا يُسمع دعاؤه، وألا تشبع نفسه، وألا ينفع علمه، ولكن لِيُنبه المسلمين إلى عِظم ضرر هذه الأشياء المستعاذ منها، ليتحروا عدم الوقوع فيها، ويُديموا الدعاء وطلب السلامة منها.

ويعرض النبى -ﷺ- دعاءه معرض المُلِح فى طلب استجابته، وذلك بتأكيده بما يشعر بدوام الطلب واستمرار الضراعة والتوجه إلى الله -تعالى- وهو إنَّ واسمية الجملة فى قوله: "اللهم إنّى أعوذ بك من ....."، ففى هذا البدء تأكيد وتقرير للمدعو به مع الإشعار بأهميته، ولفت انتباه السامع إليه، ودعوته إلى التفكير فى جمله وجزئياته،

(وعندها سوف يدرك أن فى كل من القرائن الأربع ما يشعر بأن وجوده مبنى على غايته، وأن الغرض منه تلك الغاية، فالقلب إنما خُلق لأن يتخشع لبارئه، وينشرح لذلك الصدر، ويُقذف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان قلبا قاسيا يجب أن يستعاذ منه، والدعاء يرجى له القبول، وعدم سماعه فضلا عن عدم قبوله يدل على شدة غضب الله -تعالى- على الداعى، ومن هنا كانت الاستعاذة من عدم سماع الدعاء، والنفس إنما يعتد بها إذا تجافت عن دار

---

(١) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٢٤٣.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى جامع الدعوات عن النبى -ﷺ- رقم (٣٤٨٢).

الغرور وأنابت إلى دار الخلود، فإذا كانت منهومة لا تشبع حريصة على الدنيا كانت أعدى أعداء المرء، وبذلك تكون أولى ما يستعاذ منه، والعلم إنما يُحصَّل للانتفاع به، فإذا لم ينتفع به لم يُخلص منه كفافا، بل يكون وبالا، ولذلك يستعاذ منه) [1]،

ومن ثم كان تقييد هذه الأشياء الأربع بقيد يوجب الاستعاذة منها، والإلحاح فى طلب عدم التلبس بها.

ومن يتأمل الدعوات الأربع يحس مالها من إيقاع صوتى ذى أثر قوى فى جذب انتباه السامع، ودعوته إلى الإنصات لما يسمع، بسبب توافق فواصلها، والسجع أو توافق الفاصلة مما "يزيد الكلام روعة، ويملأ القلوب تأثرا لعذوبة جرسه، وشجو رنينه، وطيب نغمه، حيث يدخل على الآذان مشتاقة، وعلى القلب وامقا، فيكون أداة مما به يتقرر المعنى، ويسهل الحفظ" [2].

وحرصا منه -ﷺ- على زيادة تقرير المدعو به، والتأكيد على طلب إجابته، نراه وقد كرره فى عبارة موجزة جامعة له، وهى قوله: "أعوذ بك من هؤلاء الأربع"، وفى ذلك كمال عناية بالمدعو لعظم المفسدة المترتبة على التلبس بأىٍّ منه، وتنبيه على ضرورة الإلحاح فى الطلب فإن ذلك أدعى للقبول.

ومما يعظم تأكيد المدعو به، ويكسبه مزيد تحقيق وإيضاح، حصر المستعاذ منه فى هذه الأشياء الأربع بطريق التعريف للمسند إليه فى قوله -ﷺ-:" هؤلاء الأربع" بأل الجنسية مبالغة فى طلب الاستعاذة منها، ولا يخفى ما فى الوصف بقوله: "الأربع" من تحديد وتقييد يقوى معنى الحصر، ويزيده تأكيدا.

* * *

ومن المستعاذ منه إلى ما يُرجى حصوله وتقرره فى النفس، فيروى أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قام على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسول الله -ﷺ- عام الأول على المنبر ثم بكى فقال:

"اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدَاً لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرَاً مِنَ العَافِيَةِ" [3]،

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى، ٨/٤٨٠.

(٢) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ٢٨٤.

(٣) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب فى دعاء النبى ﷺ. رقم (٣٥٥٨).

والعفو: محو الذنوب- والعافية: أن تسلم من الأسقام والبلايا، وهى الصحة وضد المرض. النهاية فى غريب الحديث والأثر، مادة: (عفا)-

واليقين: العلم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. لسان العرب مادة [يقن].

بداية أذكر أن الصِّدِّيق -ﷺ- قد ضرب للأمة بكيفية روايته لهذا الحديث أروع، وأعظم أمثلة التتبع والاقتفاء لآثار المتبوع، فماذا كان يضيره لو شافه الناس بهذا الحديث وهو جالس، أو واقف مكانه دون صعود على المنبر؟، إنَّ فعله لَيدل دلالة قاطعة على شدة تحريه لأفعال النبى -ﷺ- وإرادته أن ينقل الحديث بكيفيته التى تلقاه بها لزيادة تأثيره فى المخاطبين، ولِيبُث فى نفوسهم الرغبة فى السؤال عن دواعى القيام على المنبر، ثم البكاء،

فإذا بكلمات الحديث تجيب بما يدفع السامعين إلى الاستجابة لأمر النبى -ﷺ- فيه، فتلهج ألسنتهم بالدعاء الوارد فيه، وربما سكبت أعينهم دموع الخشية لما ينطوى عليه هذا الدعاء من تحذير من فتن مستقبلة، (دعت النبى -ﷺ- إلى البكاء لعلمه بوقوع أمته فيها، وغلبة الشهوة، والحرص على جمع المال، وتحصيل الجاه عليها، ومن ثم أمرهم بطلب العفو عن الذنوب، والعافية فى الدين من الفتنة، وفى البدن من سيئ الأسقام، وشدة المحن) [1]

فعلاوة على ما فى أمره- ﷺ- بسؤال الله -تعالى- العفو والعافية من نصح للأمة، وإرشاد لها إلى ما فيه خيرها وسعادتها، ففيه -أيضا- إشعار بأهمية المأمور به، وتقريره، وذلك بإعادة وتكرير طلب العفو ضمنا، إذ العافية كما نقل المباركفورى عن الطيبى تعنى "السلامة من الآفات، فيندرج فيها العفو" [2]، وفى ذلك زيادة تنبيه على أهمية طلب العفو تجريدا للمرء من ذنوبه وآثامه حتى إذا قدم على الله قدم بريئا مما يشينه.

ونظرا لما تثيره جملة الأمر فى نفس السامع من سؤال عن سبب الاقتصار على المأمور به -هنا- مع سبقه بالقيام على المنبر، والبكاء، مما يقذف فى نفس السامع أسئلة كثيرة تتطلب جوابا، نرى النبى -ﷺ- قد بادر بإزالة الإبهام، والإجابة عما يدور فى النفس من تساؤل بقوله: "فإنّ أحدا لم يُعط بعد اليقين خيرا من العافية" مؤكدا بأداة التوكيد "إنّ"، وبأسلوب النفى العام الذى لم يعقب باستثناء يقلل من عمومه ومبالغته، على عظيم نفع المأمور به، وكمال خيريته، ورفعة رتبته وشرفه، فرتبته تالية لرتبة الإيمان بالله -تعالى- المكنى عنه باليقين تعظيما وتشريفا.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٩/٧٠.

(٢) ينظر : تحفة الأحوذى ٩/٧١.

(وإنما اكتفى بذكر العافية ثانيا لعموم معناها الشامل لمعنى العفو، وإن كان ذكر العفو أولا يشعر بأنه أهم أنواعها) [1] كما بينت، وبذلك يتقرر عند السامع أهمية الدعاء المأمور به، وتتأكد فضيلته، ومن ثم يكثر من طلب العفو والعافية، ولا يفتر عن ذلك مادام حيا.

* * *

ومن أحاديث الذكر ما جاء مؤكدا قوله ـ ﷺ ـ :-

"أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى" [2]

فالنبى -ﷺ- يريد أن يقرر فى نفوس المسلمين حب الذكر، والرغبة فى الإكثار منه، ودوام فعله وحتى يتحقق له ذلك نراه قد استعان على ذلك فى بادئ أمره بألاَ التنبيهية التى ما إن يسمع الإنسان بها إلا أيقن بأهمية ما يأتى بعدها فيُعيره من الانتباه والاهتمام ما يجعله يرسخ فى ذهنه، ويتأكد المراد منه لديه،

ويزداد السامع يقظة وانتباها عندما يسمع قوله -ﷺ-: "أنبئكم" بدلا من أخبركم، لدلالة مادة "نبأ" على رفعة شأن ما يخبر به، وتحقق وقوعه، "فالخبر حين يكون محقق الوقوع ذا فائدة جليلة يحصل به علم، أو غلبة ظن يطلق عليه بهذه القيود نبأ" [3]، (ولذا سمى الله القرآن الكريم وما فيه نبأ قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، وقال ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، ومنه النبوة، والنبى لإنبائه عن الله صدقا ما تسكن له العقول) [4].

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٩/ ١٧

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى فضل الذكر. رقم (٣٣٧٧)، وأُنبئكم: أُخبركم فالنبأ الخبر - أزكاها: أى أكثرها طهارة ونماء وبركة- والوَرِق: بكسر الراء الفضة. ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، المواد: (نبأ، زكا، ورق). والمليك: ذو الملك. من صيغ المبالغة. ينظر: لسان العرب مادة: (ملك).

(٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم.د/ صَبَّاح عبيد دراز صـ ٧، طـ ١ مطبعة الأمانة . مصر ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٤) ينظر: المفردات للراغب، مادة (نبأ)، والآية الأولى من سورة النبأ رقم (٢،١)، والثانية من سورة ص رقم(٦٧)

وتشتاق نفس السامع بعد ذلك إلى الوقوف على هذا النبأ، وتزداد رغبة فـــى معرفتـــه، فيزيدها النبى- ﷺ- شوقا إلى شوقها بسرده أوصاف هذا النبأ فى قولـــه: "بخـــير أعمـــالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم مـــن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟"، عند هذا الحد يتأكد السامع مـــن أنـــه بصدد الوقوف على معرفة أمر جليل يفوق فضله فضل سائر الأعمال، ويجاوزها ثوابا وجزاء،

فالناظر فى هذه الجمل السابقة يعلم ذلك، حيث أكد النبى -ﷺ- خيرية ما يريد الإنباء به بزيادة الباء أولا فى المفعول فى قوله: "بخير" وما يفيده الحرف الزائد من قيامه مقام إعـــادة الجملة مرة أخرى تقريرا لها.

ثم بالتعميم للمفضَّل عليه فى قوله: "أعمالكم" فما من عمل يخطر ببال الســـامع إلا ومـــا سوف يُنبّأ به أفضل منه،

ثم بالمبالغة فى إثبات صفات الكمال والرفعة لهذا الأمر بقوله: "وأزكاها عنـــد مليككـــم، وأرفعها فى درجاتكم" فهو أنمى الأعمال وأنقاها، وأكثرها ثوابا.

ثم بعد ذلك نرى النبى -ﷺ- قد صعّد من تأكيده لتجاوز فضل العمل الذى يريـــد إنبـــاء الأمة به فضل سائر الأعمال الأخرى، بتخصيصه لعملين قد يخطر ببال السامع أنهما الأفضـــل والأكثر ثوابا لتعلقهما بإنفاق ما يشتد حرص الإنسان على بقائـــه، وهـــو المـــال، والنفـــس، وتكريره تفضيل ما يريد الإنباء به عليهما على سبيل ذكر الخاص بعد العام فى قوله: "وخـــير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربـــوا أعناقـــهم ويضربـــوا أعناقكم" وبذلك يتضاعف التأكيد والتقرير لفضل هذا الأمر.

وإذا بالنفوس قد بلغ بها الشوق لمعرفته مبلغه، واشرأبت الأعناق وتطاولت اســـتعدادا لتلقى هذا النبأ العظيم بعد جوابهم على استفهام النبى -ﷺ- بقولهم : "بلى" فى إيجاز مـــهيب نتيجة لما خُيِّل لهم بسبب هذا التقديم من صعوبة هذا العمل الأفضل، واقترانه بمشـــقة زائـــدة نظير زيادته فى الأجر .

وإذا بالمفاجأة الكبرى التى تصيبهم بالدهشة والسرور معا فى آن واحد، وذلك عند سماعهم جواب النبى -ﷺ- بقوله: "ذِكْرُ اللهِ تَعالَى"، (وبذلك يتقرر عند السامع أن الثواب لا يترتب على قدر النَّصَب فى جميع العبادات، بل قد يأجر الله -تعالى- على قليل الأعمال أكثر مما يأجر على كثيرها، إذ الثواب يترتب على تفاوت الرتب فى الشرف) [1] وهل هناك أيسر مؤنة وأعلى رتبة من ذكر الله تعالى؟

* * *

ويؤكد النبى -ﷺ- فضل الذكر ببيانه عِظم جزاء الله -تعالى- على بعض منه بقوله:

"مَا على الأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ" [2]

فكثيرا ما يظلم الإنسان نفسه باقترافه الذنوب، وارتكابه المنكرات، وقد يظن أن ما فعله قد بلغ من السوء والقبح بحيث لا يناله عفو، ولا تطاله مغفرة، فيستولى عليه اليأس، وما إن يسمع بهذا الحديث وأمثاله مما يدور فى فلكه إلا ويطمئن قلبه، ويعلم أن عفو الله أعظم، وأن مفتاح هذا العفو، والسبيل الموصل إليه أيسر، فما هو إلا كلمات يضرع إلى الله -تعالى- بها فى إخلاص وصفاء حتى تُغفر ذنوبه، وتمحى عنه آثامه، إلا ما كان منها متعلقا بالعباد، فيحتاج لغفرانه زيادة على ذلك التحلل من الذنب بعفوِ مَن تعلق به، أو بردّ المظالم إلى أهلها.

ويؤكد النبى -ﷺ- على تسبب كلمات الذكر هذه فى مغفرة الذنوب، ومحو آثارها بعرضها فى أسلوب يمنحها من القوة والتأكيد ما تقف به حجر عثرة أمام ريب المرتابين، وإنكار المنكرين، هذا الأسلوب هو أسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء فى قوله -ﷺ-: "ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا كفرت عنه خطاياه" فتعبيره -ﷺ- عن المعنى المراد بهذا التأكيد والتقرير لَيترجم لنا مدى اهتمامه بتقريره عند السامع، وترسيخه فى ذهنه.

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٨/ ٣٨٠.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد. رقم (٣٤٦٠). والحول: الحركة، يقال: حال الشخص يحول إذا تحرك وقيل: الحول: الحيلة. والأول أشبه النهاية فى غريب الحديث . مادة : (حول). والزبد: طفاوة الماء وقذاه، والجمع أزباد. لسان العرب مادة: (زبد).

وفى تنكيره -ﷺ- لفظ "أحد" تأكيد -أيضا- على شمول عفو الله، ومغفرته مهما عظم الذنب وتنوع.

وفى تقييده النكرة بالأوصاف التالية لها تأكيد على رحمة الله -تعالى- وتيسيره على عباده، وإرادته أن تنالهم جميعا رحمته، فالمطلوب لذلك هو إجراء كلمات التوحيد، والتمجيد، والإنابة هذه على لسان المرء مع إخلاص قلبه بها.

وإذا نظرنا إلى النتيجة المترتبة على ذلك وجدناها أعظم ما يكون أثرا وأجل قدرا يمثلها قوله -ﷺ-: "كُفِّرت عنه خطاياه" بصيغه الجمع مما يفيد عموم التكفير والمحو للذنوب والخطايا جميعها دون تفريق بين صغير، وكبير ترغيبا زائدا، وحثا أكثر على دوام التوجه إلى الله -تعالى- بهذه الكلمات الطيبة وأمثالها.

ولو وقف النبى -ﷺ- على هذا القول واكتفى به لحصل ما يهدف إليه من تقرير لفضل الذكر، وحث عليه، ولكن نراه -ﷺ- يبالغ فى التقرير والتأكيد لفضل الذكر، وأثره فى تكفير الخطايا بقوله: "ولو كانت مثل زبد البحر"، (والمراد بذلك الكناية عن المبالغة فى كثرة الذنوب) [1]، ومن ثم صور النبى -ﷺ- هذا المعنى تصويرا ضاعف من تأكيده وتقريره لشمول التكفير بسبب الذكر الوارد- هنا- لجميع الذنوب مهما كانت كثيرة.

فمَنْ مِنَ الخلق بلغت ذنوبه من الكثرة ما يجعلها شبيهة بزبد البحر؟! وإن وجد من بلغت ذنوبه هذا الحد فتوحيده الله يَجُبُّ ما قبله، ويمحوه، وتكبيره وثناؤه عليه يُنقي نفسه، ويطهر روحه، وتفويضية أمره إليه يجعله من المقربين.

وبذلك لا يملك السامع لهذا الحديث إلا أن يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. بصدق وإخلاص رغبة فيما عند الله -تعالى-.

* * *

ومن فضائل الذكر ما أخبر به النبى -ﷺ- فى قوله:

"مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا حَفَّتْ بِهِمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ" [2]،

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٨/٤٦١.

(٢) الجامع الصحيح للترمذى. كتاب الدعوات، باب ما جاء فى القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل.

في هذا الحديث يحث النبى -ﷺ- المسلمين على دوام الذكر، ويدفعهم إليه برفق من خلال ترغيبهم فيما عند الله -تعالى- للذاكرين، (ويُبين ذلك النبى -ﷺ- بيانا مؤكدا بحصر الحالة التى يكون عليها أهل الذكر فى تلكم الأضرب من الجزاء الكريم، والتجلى الإلهى، حتى يروا أن ما يبذلون من السبب هينا يملكونه وما يُوهب من الثواب عظيما يرجونه، فتهش نفوسهم للذكر يتنافسون فيه، وتستيقظ قلوبهم فترى وهى تذكر الله -تعالى- ما أخبر به الصادق المصدوق رأى عين) (١)،

ويضاعف من تأكيد المعنى زيادة "مِنْ" بعد ما النافية فى قوله -ﷺ-: "ما مِن قوم" لدلالة الحرف الزائد على تقرير المعنى المراد وترسيخه فى ذهن السامع، وفى ذلك عناية بالغة، واهتمام زائد بذكر الله -تعالى- والحرص عليه،

(وفى تعبيره -ﷺ- بلفظ "قوم" إشارة إلى فضل الجماعة، حيث يُذكِّر بعضهم بعضا ما نسى، ويكشف ما خفى) (٢)، وفى تنكيره أيضا تعظيم وتشريف للاجتماع على أعمال البر والطاعة.

وما من إنسان يتأمل فضل الله -تعالى- وامتنانه على أهل الذكر الذى يمثله قوله -ﷺ- "حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده" إلا ويتأكد عنده فضل الذكر، ويعقد عزمه على أن يحسب عند الله ذاكرا .

فأهل الذكر يحفهم ويحيط بهم ملائكة الرحمن تعظيما وتشريفا لما جلسوا من أجله،

وتغشاهم الرحمة حتى وكأنها خباء يحتمون به من أن ينالهم أذى، أو يصيبهم مكروه حالة انشغالهم بذكر الله -تعالى- وهذا ما يفيده تصوير الرحمة بالخباء على سبيل الاستعارة المكنية مبالغة فى إحاطتها بأهل الذكر،

ثم إن السكينة لَتنزل عليهم فيحسون أثرها طمأنينة فى قلوبهم، وسكونا فى جوارحهم، كما أن التعبير بالنزول فى جانب السكينة يوحى بتجسيدها _أيضا- وذلك على سبيل الاستعارة المكنية المبنية على التخييل مبالغة فى الإثبات والتحقيق لما يراد تصويره .

رقم (٣٣٧٨) وحفت بهم: أى طافت بهم، ودارت حولهم- وغشيتهم: أى غطتهم- والسكينة: أى الطمأنينة والوقار. ينظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر الموارد [حفف - غشا - سكن].

(١) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية صـ١٣٢، ١٣٣.

(٢) ينظر: الحديث النبوى الشريف من الوجهة اللاغية صـ١٣٣.

وأعظم من ذلك كله ذكر الله -تعالى- لهم مباهيا بهم ملائكته، ومفتخرا بهم أمامهم، وذلك دليل رضاه بفعلهم، وقبوله لذكرهم، وتسبيحهم .

وذكر الله -تعالى- لهم يخالف ذكرهم إياه، وإنما عُبِّر عن رضاه -تعالى - عن فعلهم، ومباهاته بهم بلفظ الذكر على سبيل المشاكلة لوقوعه فى صحبة الذكر الأول تحقيقا، وفى ذلك تنبيه للسامع، وإيضاح وتقرير للمعنى المراد فضلا عن تحسينه.

"فالمشاكلة لون بديعى خلاب يثير الانتياه، وينشط العقول، ويستدعى التفكير والتدبر، وذلك لأن المعنى المراد يظهر فى لفظ غير لفظه، فيبدو فى رداء غير مألوف، ولباس غير معتاد، مما يثير انتباه المتلقى، ويستدعى إصغاءه، ويبعث عقله على التفكير فى اللفظ المعروض عليه، والمعنى المراد منه، فإذا علمه بعد ذلك تأكد لديه وثبت عنده" (١)

ومما تجدر الإشارة إليه هذا التناسب والتلاؤم بين ألفاظ الحديث، فكل لفظة تستدعى صاحبتها، وتُمهد السبيل إليها، فلا وحشة ولا نفرة، بل السلاسة والانسجام هما طابع هذا الحديث وغيره من أحاديثه -ﷺ، "ومعلوم أن التناسب - أو مراعاة النظير- أمر ضرورى فى بلاغة الأساليب، وأن الأسلوب البليغ تتلاءم ألفاظه، وتتناسب معانيه، ويكون منظوما على نسق مؤتلف فى شكله ومضمونه" (٢) كما هو الحال هنا،

وبعد: فهل من سبيل إلى الترغيب فى ذكر الله -تعالى-، والتأكيد على فضله أبلغ من بيانه - ﷺ-؟

* * * * * * * *

(١) دراسات منهجية فى علم البديع، د/ الشحات محمد أبو ستيت ، صـ١٤٩، ط١، دار خفاجى للطباعة والنشر- شبين الكوم ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٢) السابق صـ٩٠.